الجواب المفيد

في الفرق بين التغني و التجويد

تأليف فضيلة الشيخ

عبد الرحمن بن محمد الدوسري

(١٣٣٢ - ١٣٨٩هـ)

توثيق و تعليق

أ.د. سعود بن عبد الله الفنيسان

دار إشبيليا
للنشر والتوزيع

جَمِيع الحُـقـوق محْـفوظَـة

الطبعَـة الأولى
١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م

ⓒ **دار اشبيليا للنشر والتوزيع ، ١٤١٩هـ**

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الدوسري ، عبدالرحمن محمد
الجواب المفيد في الفرق بين التغني والتجويد - الرياض.
١٠٢ ص ؛ ١٤ × ٢١ سم
ردمك : ٢ - ٧٤ - ٧٢٧ - ٩٩٦٠
١- القرآن - القراءات والتجويد أ. العنوان
ديوي ٢٢٨,٩ ١٩/٤٦٠٢

رقم الايداع ١٩/٤٦٠٢
ردمك : ٢ - ٧٤ - ٧٢٧ - ٩٩٦٠

دار إشبيليا للنشر والتوزيع المملكة العربية السعودية - ص.ب: ١٣٣٧١- الرياض: ١١٤٩٣
هاتف: ٤٧٩٤٣٥٤ - ٤٧٤٢٤٥٨ - فاكس: ٤٧٧٣٩٥٩

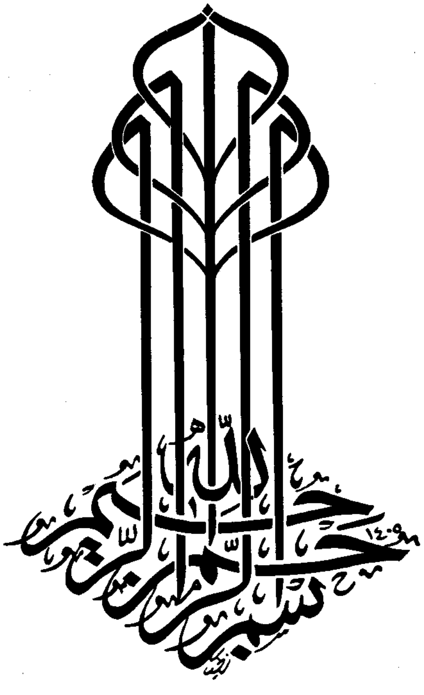
بسم الله الرحمن الرحيم
١٤٠٩هـ

مقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على قائد الغر المحجلين، نبينا محمد وعلى آله وصحابته أجمعين.

وبعد:

فسبق لي أن طبعت كتابي (فتح المجيد في حكم القراءة بالتغني والتجويد) عام ١٤١٠هـ، وبعد أربع سنوات اطلعت على رسالة صغيرة لفضيلة الشيخ عبدالرحمن الدوسري رحمه الله ورفع منزلته في عليين، باسم (القرآن الكريم للاستغناء، ليس للغناء)، أهداني إياها ابنه البار إبراهيم وفقه الله، فسررت بها أيما سرور، حيث وجدتها تتفق في الهدف والغاية مع ما توصلت إليه في كتابي آنف الذكر في حكم التجويد والتغني بالقرآن، فعزمت أن أخرج رسالة الشيخ عبدالرحمن، ليعم بها النفع إن شاء الله، وقد بلغت صفحاتها (٤٠) صفحة

بالفلوسكاب وبخطه رحمه الله، وقد ذكر الشيخ عند ترجمته لنفسه في مقدمة تفسيره مؤلفاته، وذكر هذه الرسالة، غير أنه سماها هناك (الجواب المفيد في الفرق بين التغني والتجويد) وإن كان كلا العنوانين يطابقان محتواها، غير أني اخترت هذا العنوان على الذي قبله، لكونه أصرح وأوضح في الموضوع.

وقد ألف الشيخ رحمه الله هذه الرسالة جواباً لسؤال ورده هذا نصه: (إن بعض المتدبين للتدريس في المعهد الديني بالكويت أحرجوا العامة في شأن تلاوة القرآن، زاعمين أن تلاوة القرآن محرمة بغير تجويد، وأن القارئ غير المجود آثم، مستوجب للعقوبة عند الله... ومن كانت هذه حاله يجب عليه شراء (دلائل الخيرات) ليقرأه بدلاً عن القرآن).

وعملي في هذه الرسالة هو مجرد توثيق النص، وعزو الآيات إلى سورها، وتخريج الأحاديث والتعليق عليها تعليقاً مختصراً عندما تدعو الحاجة إلى ذلك.

رحم الله الشيخ أبا إبراهيم، وأسكنه فسيح جناته، وألحقنا به غير مبتدعين ولا مفتونين، وما توفيقي إلا بالله، عليه توكلت وإليه أنيب.

وكتبه/ أبو عبدالله

سعود بن عبدالله الفنيسان

حرر في ضحى يوم الخميس ٨/٧/١٤١٦هـ

نبذة مختصرة عن حياة المؤلف

هو عبد الرحمن بن محمد بن خلف الدوسري، ولد سنة ١٣٣٢هـ، والده من أهل الشماسية بالقصيم، تزوج منها، ثم انتقل بزوجته إلىٰ البحرين لزيارة أبيها علي بن سليمان اليحيا من أهل بريدة ومقيم في البحرين لغرض التجارة. وفي أثناء هذه الزيارة ولد عبدالرحمن، ثم سافر به أبوه مع أمه إلىٰ الكويت واستقر بها زمناً، ونشأ بها الابن الشيخ عبدالرحمن نشأة صالحة، ودرس في المدرسة المباركية، وحفظ عدداً من المتون وأمهات الكتب، ومنها نونية ابن القيم، وكان كثيراً ما يستشهد بها.

ومن أبرز شيوخه في الكويت: عبدالله بن خلف الدحيان، وفي البحرين قاسم بن مهزع، وفي الشارقة صالح بن عبدالرحمن الدويش، من أهالي الزلفي. وسكن الشارقة حتىٰ توفي بها سنة ١٣٥٣هـ.

وكان الشيخ عبدالرحمن ـ رحمه الله ـ ذكياً فطناً، له عزيمة نافذة، أعطاه الله حافظة قوية، فلا يكاد يقرأ شيئا

أو يسمعه إلا حفظه . حفظ القرآن كاملاً بعد أن كبر سنه في حدود شهرين تقريباً ، كما ذكر لي رحمه الله .

وكان حريصا على نشر العلم وبث الوعي بين الناس ، والمثقفين منهم خاصة ، وكثيراً ما كان يشتري عدداً من الكتب العلمية والثقافية والأشرطة ويشترك بأعداد من المجلات الإسلامية يقوم بتوزيعها على العلماء والشباب . وكان يطلب من التجار وأهل الخير أن يفعلوا مثل هذا .

كتب في حياته ترجمة لنفسه كعادة بعض علماء السلف . وهي موجودة في مقدمة تفسيره مفصلة ، يحسن الرجوع إليها .

وكان رحمه الله يشتغل بتجارة (البز) القماش ، ولم يلتحق بوظيفة رسمية ، حتى لا تقيده عن السفر والترحال حيث أراد ، فجل وقته يجوب البلاد واعظاً وخطيباً في المساجد والحدائق العامة والنوادي الرياضية أو محاضراً في الجامعات والمعاهد والمدارس والمؤسسات الحكومية والأهلية ، أو متحدثاً في الإذاعة ، أو كاتباً في الجريدة .

وفي محاضراته ودروسه كان حريصاً على الإجابة

علىٰ أسئلة الحاضرين، وربما استطرد فيها حتىٰ تكاد تكون محاضرة أخرىٰ، غير أنه إذا أحس بأنه أطال علىٰ الحاضرين، أو كادوا يملون اقتصر علىٰ بعض الأسئلة، وترك البعض، وجعله موضوع خطبة جمعة أو مقالاً في جريدة أو موعظة بعد الصلاة.

لقد ألف رحمه الله عدداً من المؤلفات في شتىٰ الفنون، بلغ مجموعها (٣٧) مؤلفاً، لم يطبع منها إلا اليسير جداً، وكان يقرض الشعر علىٰ طريقة العلماء، وقد ألف في فقه الحنابلة منظومة بلغت (١٢٫٠٠٠) بيت.

لقد كان الشيخ عبدالرحمن ـ رحمه الله ـ ذا فراسة قوية وبصر ثاقب، من ذلك أنه ألقىٰ محاضرة في عام ١٣٨٥هـ(١٩٦٥م)، وقبل وقوع حرب حزيران ١٩٦٧م بأكثر من سنتين، فكان مما قال: (إن وقعت الحرب بين العرب وإسرائيل فستكون (نكسة)، وستسمىٰ (نكبة)، وستذهب الضفة الغربية والجولان وسيناء، وسيتبع ذلك مفاوضات للحصول علىٰ الاعتراف بإسرائيل، وستكون مصر هي أول من يعترف بإسرائيل، وستتبادل الدول

العربية التمثيل الدبلوماسي معها، وأدعو الله أن يخيب ظني، فلا يحصل شيء من هذا كله)آ. هـ.

رحم الله أبا إبراهيم، لقد كان بحق سابقاً لزمانه، ينظر بنور الله لما كان يخطب ويحاضر في كل مكان، محذراً من أخطار الماسونية والصهيونية وألاعيب القوميين والاشتراكيين.

أشهد أنه قد بلغ في هذا ما عليه، وأقام الحجة على سامعيه.

وفي آخر حياته مرض، فسافر إلى (لندن) للعلاج، ونصحه الأطباء بالراحة وعدم الكلام، ولكنه لم يلتزم، فقد تحدث في المركز الإسلامي هناك يوم الجمعة، وأطال في الإجابة على أسئلة الحاضرين، فاشتد عليه المرض، فتوفي يوم السبت ١٦ من ذي القعدة من عام ١٣٨٩هـ. ونقلت جنازته إلى الرياض فصلى عليها جمع غفير من الناس، وكان يوم دفنه يوماً مشهوداً من كثرة المشيعين، رحمه الله وغفر له، وأسكنه فسيح جناته، وجمعنا به في دار كرامته. آمين.

الجواب المفيد في الفرق بين التغني والتجويد

تأليف

فضيلة الشيخ عبد الرحمن بن محمد الدوسري

(١٣٣٢ - ١٣٨٩ هـ)

توثيق وتعليق

أ. د. سعود بن عبد الله الفنيسان

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذَّي تعبّد أهل الإيمان بتلاوة القرآن ، ووعدهم على ذلك جزيل الأَجر والغفران، والصَّلاة والسَّلام على عبده ورسوله محمد سيِّد ولد عدنان، وعلى آله وأصحابه والتَّابعين له بإحسان، ماتعاقب الملوان، وكرَّ الجديدان .

أَمَّا بعد، فقد كثر علينا الاستفتاء مع غاية الإلحاح من جماعتنا الَّذين أُحرجوا من قِبَل بعض العلماء المنتدبين للتدريس في المعهد الدِّيني في الكويت . وذلك أنَّهم أحرجوا العامَّة في شأن تلاوة القرآن، زاعمين أنَّ تلاوة القرآن محرَّمة بغير تجويد . (وهم يسرُّون فيما بينهم أنَّها مكروهة)، ويروِّج بعضُهم على العامَّة أنَّ القارئ غير المجوّد أقل أحواله أن يكون آثماً، يستوجب العقوبة عند الله ، وأنه في بعض الأحيان يكفَّر إذا أخلَّ في الإعراب ولَحَنَ في القراءة ، كإذا لم يشدّد ﴿**إيَّاك نعبد**﴾، ونحو ذلك من جرِّ ما يجب رفعه أو نصبه، وأنه على هذه الحالة

يجب عليه شراء «دلائل الخيرات»(١) ليقرأه بدلاً من القرآن في المساجد، حيث أنَّ الذي لايحسن القراءة يجب عليه أن ينصرف إلىٰ الأذكار والصَّلاة علىٰ النَّبي ﷺ، ليحوز الأجر ويسلم من الإثم.

هذا خلاصة ما أَحرجوا به العوام من الأوهام التي يجب اطِّراحها، وقد أكثروا عليَّ الإلحاح بأن أكشف لهم الحقَّ وأُوضِّح ما هو الواجب اتِّباعه، وأُزيح ما خالجهم من الحيرة في قراءة كتاب الله، وقد تردَّدتُ باديء الأمر في ذلك، أولئك عسىٰ أن يرجعوا ويعتذروا، حتَّىٰ إذا طال الأمد، وكثر الكلام فلم أجد بُدًّا من ذلك، فاستعنت

---

(١) تأليف محمد بن سليمان الجزولي السملاني (ت ٨٥٤) هـ فيه من البدع والضلالات الشيء الكثير. أفتى بعض علماء نجد بإحراق هذا الكتاب، وقيل: إن الإمام محمد بن عبدالوهاب رحمه الله أفتى بإحراقه فقيل في ذلك:

وحرّق عمداً للدلائل دفتراً　　أصاب فقيهاً مايجل عن العدِّ
غلوٌّ نهى عنه الرسول وفرية　　بلا مرية فاتركه إن كنت تستهدي
أحاديث لاتعزى إلى عالم فلا　　تُساوي فُليساً إن رجعت إلى العد

انظر: كشف الظنون ١/ ٧٥٩ ومجموعة الرسائل والمسائل النجدية ٢/ ٣٨.

باللَّه، وماتوفيقي ولا اعتصامي إلاَّ به ، وها أنا أشرع في المقصود، فأقول :

اعلم أيُّها القارئ الكريم ، أَنَّه قد تكاثرت النُّصوص في الكتاب والسُّنَّة على مشروعيَّة قراءة القرآن ، وفضيلة مداومة تلاوته آناء الَّليل والنهار ، دون أن ينصَّ شيء من ذلك على مشروعيَّة التزام أَحكام التَّجويد الصِّناعي ، بل يقرأ كلُّ إنسان على حسب مقدرته ، وما تسمح به لهجته. وإن هذا التجويد الصِّناعي الذي يتشدَّق به أهله ، إنَّما هو بدعة محدثة من بعد القرون المفضَّلة ، لم يفعله النَّبي ﷺ ، ولا التابعون لهم بإحسان ، وهم خير القرون بشهادة المصطفى ﷺ ، وإنَّما حدث بعد هؤلاء من أهل القرون المذمومة ، بقوله ﷺ : (خير القرون قرني ، ثمَّ الذي يليه، ثم يأتي أقوام يقولون ما لا يفعلون، ويفعلون ما لا يؤمرون، فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن ، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن. ليس وراء ذلك من الإيمان شيء) (١).

وهذا الحديث رواه أكثر أصحاب السُّنن

---

(١) متفق عليه انظر اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان، ص ٦٨٨ .

والمسانيد، وهو من علامات النبوَّة ، فقد وقع ما أخبر به ﷺ ، حيث ثقلت التكاليف الشرعيَّة علىٰ أهل هذه العصور المذمومة ، فأخذ البعض يتجرَّد عن العمل بها ، وبعض منهم ابتدعوا تكاليف من عند أنفسهم لم ينزل الله بها من سلطان، فسهلت عليهم، إذ هي من أوضاعهم لم يدخلوا بها تحت غيرهم، وذلك مصداقاً لقوله ﷺ : (يقولون مالا يفعلون ،ويفعلون مالا يؤمرون). كما هو مشاهد محسوس غير خافٍ علىٰ ذي بصيرة. فمن جهة تجدهم معطِّلين لبعض الشعائر الإسلاميَّة، كأنَّهم أَبعد الناس عنها، ومن جهة أخرىٰ تجدهم عاكفين علىٰ أوضاع ابتدعوها ، مقدِّسين لها، ومختلقين لها أدلة واهية أو موهومة، وتجد قسماً منهم ناقضين عرىٰ الإسلام، أو بعضها من شتَّىٰ النَّواحي، ومجددين زيادة في الإسلام، ليست من الدِّين في ورد ولا صدر. ومع ذلك فهم يفندونها ويتمونها بكلِّ ما استطاعوا من حول و قوَّة ، وينظِّمونها ويبالغون في الاستقامة عليها ممّا لو كانت

مؤكدة التَّحتيم في الشَّريعة، بل لو كانت كذلك لما صرفوا إليها من الاعتناء بعض ذلك، هذا شيء مفهوم قد تكلَّم فيه العلماء المحقِّقون من أهل كلِّ مذهب سنِّي قويم.

إذا عرفت ذلك، تبيَّن لك أنَّ التزام أحكام التجويد الصِّناعي في قراءة القرآن لم يكن مشروعاً من قِبَل اللَّه ولا رسوله، ولم يرد به أيُّ نصٍّ أَو إشارة من علم يجب المصير إليها، وإنَّما هو من محدثات أهل هذه العصور، ومخترعاتهم، وأَنَّه يُنافي التَّيسير الَّذي انطوت عليه هذه الشَّريعة الإِسلاميَّة السَّمحة، حيث لا تقبله سماحة الدين الَّتي امتدحه اللَّه بها ورسوله، وذلك تكليف كلِّ قارئ من الأُمَّة أن يلتزم هذه الأَوضاع في القراءة، ولا يخرج منها وإلاَّ كان مرتكباً خطيئة، أو يؤول أمره إلىٰ الكفر، كما يزعم هؤلاء الذين فرحوا بما أُوتوا من هذه البضاعة. إنَّما يكون هذا التّكليف في الإصر والحرج الّذي رفعه اللَّه عن هذه الأُمة، كما ورد به القرآن الكريم، وأمر اللَّه عباده أن يدعوا به، فيستجيب لهم، حيث قال: ﴿لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا ...﴾، إلىٰ أَنْ قال: ﴿رَبَّنَا وَلا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْراً كَمَا حَمَلْتَهُ

عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلا تُحَمِّلْنَا مَا لا طَاقَةَ لَنَا بِهِ . . . ﴾(١) .

ومعلوم عند العامَّة والخاصَّة ما جاء في ذلك . وقد قال ﷺ : (رفع عن أمتي الخطأُ والنِّسيان ، وما استكرهوا عليه . .) (٢) . فإيجاب التزام أحكام التجويد الصِّناعي علىٰ كلِّ قارئ ، إنَّما هو منافاة ومناوأة لهذه النُّصوص ، وإخلال بسماحة الدِّين ، وإحراج للأُمة ، وتكليف لهما بما لم يكلفها اللَّه به . ولم يُعرف ولم يُؤْثر عن النَّبيِّ ﷺ أنه قرأ بشيء من ذلك ، أو أَمر بشيء من هذه القوانين الموجودة في هذا الفن .

ولو طُلِبَ من هؤلاء أَو من أشياخهم إلىٰ الأبد إقامة دليل عن اللَّه ورسوله علىٰ إيجاب الإدغام الذي توالوا بوجوبه في مواضعه المزعومة عندهم ، لما وجدوا إلىٰ ذلك سبيلاً ، وكذلك علىٰ إيجاب الإقلاب ، أو الغنَّة ، أو غير ذلك ، ممَّا هو مسطور في ذلك الفن الذي يفتخرون

---

(١) سورة البقرة : الآية : ٢٨٦

(٢) أخرجه ابن ماجه في السنن ١/ ٦٥٨ . وأحمد في المسند ٦/ ١٠٠ و١٤٤ . وأبوداود في السنن ٤/ ١٣٩ . وصححه الحاكم في المستدرك ٢/ ٥٩ ، ووافقه الذهبي .

بالاستئثار به من دون سائر النَّاس، لا يقدرون علىٰ إقامة دليل واحد علىٰ أيّ حكم من أحكامه الوضعيَّة، سوىٰ ما ورد عنه ﷺ في المدِّ المطلق ⁽¹⁾ الذي لا يفيد شيئاً في تفاصيلهم، ومبالغتهم وتعسُّفهم فيه.

وقراءة النَّبي ﷺ في بعض ركعات صلاة بسورة البقرة وآل عمران والنساء ⁽²⁾، تُثْبِت لنا عدم التزامه بما التزموه من التجويد، لأَنه لو قرأ هذه السُّور حسبما يقرؤونها اليوم، لاستغرقت الرَّكعة أكثر أجزاء الليل، أَو جميعه، بحيث لا يستطيع أَحد الوقوف معه، ولايمكن أن تقرَّه سماحة الدين.

ولكن أهل التَّجويد، لما شرعوا للنَّاس ما لم يأْذن به اللَّه، أخذوا ينتصرون لما وضعوا، ويحمِّلون جميع الأُمَّة والعامَّة ما تحمَّلوا هم به، هذا ضرب من ضروب التحَيُّز الذي ينميِّه الإعجاب.

---

(١) كحديث أنس بن مالك في صحيح البخاري في وصف قراءة النبي ﷺ (كانت قراءته مداً مداً) انظره مع الفتح ٩/ ٩٠.

(٢) انظر فضائل القرآن لأبي عُبيد القاسم بن سلام ص ١٢٥.

فإن قيل: إنَّ قراءته ﷺ لهذه السُّور في تلك الصَّلاة حدر وإسراع، قلنا: إنَّ قراءته لم تكن حدراً وإسراعاً، حيث ثبت في الحديث أنَّه قرأها مسترسلاً، إذا مرَّ بتسبيح سبَّح، وإذا مرَّ بسؤال سأل، وإذا مرّ بوعيد تعوذ، كما هو منصوص الحديث عند مسلم وأحمد والنسائي⁽¹⁾. ومنه ما يثبت لنا أن قراءته على حسب الطبيعة خالية من الاصطناع اللّغوي المحدث، وهذا الحديث يشهد عليهم بإحداث ما ليس عليه الرَّسول ﷺ كما تقدم.

ومن العجيب أنَّهم يستدلون على إيجاب التجويد في القراءة وتحريمها على النَّاس بدون ضبطه، بقوله تعالى: ﴿ورَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً﴾ ⁽²⁾ فهل في هذه الآية ما يدل على ذلك؟ تاللَّه إنَّه ليس فيها ما يدل عليه، لا بطريق المنطوق ولا المفهوم لدى التَّحقيق، وذلك لعدة وجوه:

أولها: أَنَّ معنى التَّرتيل في اللّغة هو ضدُّ الإسراع، إذ هو التمهُّل والإفصاح في النطق على وجه يميِّز به معناه،

---

(١) انظر فضائل القرآن لأبي عبيد القاسم بن سلام ص ٦٦. وفضائل القرآن للفريابي ص ٢٠٨، وانظر صحيح مسلم ١/ ٥٣٦، ومسند أحمد ٥/ ٣٨٥.

(٢) سورة المزمل: الآية: ٤

ويحصل به التَّدبُّر والخشوع، وليس التَّرتيل مراعاة إخراج الحروف من مخارجها، كما يزعمون، وإشباعها بالتَّصنع، والتَّمطيط، وتمييل الأنف، وتعقيد الوجه، وتشخيص البصر، وارتجاف الجسم، وتحريك الأيدي والعواطف، وهزّ الرَّأس، والتَّمايل يمنة ويسرة، كما هو شأْن أَهل الطَّرب والنَّشوة، ممَّا هو مشاهد من حركات قرَّاء الأمصار.

حقاً إنَّ هذه الآية الكريمة لايتضمَّن منطوقها أو مفهومها شيئاً من ذلك. وقوله: (ترتيلا) ليس فيه ما يؤكد شيئاً من ذلك أو يُومئ إليه كما زعموا، ولكن يلاحظ شبهتهم من تأكيد المصدر الذي يزعمونه.

الوجه الثاني: وهو أنَّ السُّنَّة المطهَّرة مبيِّنة للقرآن، وموضِّحة لما اشتبه منه أو أُجمل، ولم يُنْقل عن النبيِّ ﷺ أَنَّه فسَّر هذه الآية بما فسَّروها به، أو فعل كما يفعلون، من التزام أَحكام التجويد الَّتي أحدثوها، مراعاة منه ص لهذا المصدر التأكيدي، الَّذي زعموا أنَّه يُقصد منه ذلك، ولو

كان ذلك مقصوداً من هذه الآية، لفعله النّبيﷺ، وداوم عليه وأمر به، وأكَّده لأصحابه، ولعمل به أصحابه من السَّلف الكرام، أُولُو الجدِّ في الطاعة والتَّشمير.

الوجه الثالث: وهو أنَّه لا يجوز تأخير البيان عن وقت الحاجة، ولا حاجة أعظم من هذا وأَمسّ، حيث تواترت النصوص بالحثِّ على قراءة القرآن (١) والإكثار من تلاوته، دون أن يُشير شيء منها إلى التزام أحكام هذا التجويد المزعوم وجوبه لدى هؤلاء، فلو كان ذلك واجباً لما ساغ منه ﷺ تأخير البيان عن هذه الحاجة التي هي من الدِّين بمكان عظيم.

الوجه الرَّابع: وهو إقراره ﷺ لجميع أصحابه - على اختلاف لهجاتهم - على قراءتهم القرآن، دون أن يلتزموا شيئاً من ذلك، كما ثبتت به الأخبار؛ من ذلك ما صحَّحه أصحاب السُّنن والمسانيد، ومنهم الإمام أحمد، وأبو داود،

---

(١) كحديث (اقرؤوا القرآن ما ائتلفت عليه قلوبكم) متفق عليه. وحديث (خذوا القرآن من أربعة: عبدالله بن مسعود وسالم مولى أبي حذيفة ومعاذ بن جبل. وأبي بن كعب) متفق عليه.

عن جابر بن عبدالله، رضي الله عنه، قال: (خرج علينا رسول الله ﷺ، ونحن نقرأ القرآن، وفينا العربيُّ، والعجمي، فقال: اقرؤوا فكل حسن، وسيجيء أقوام يقيمونه، كما يُقامُ القدح، يتعجَّلُونه، ولايتأجَّلونه)[١].

وفي هذا الحديث، التنصيص على استحسانه لما فعلوه، دون أن يأمرهم بالإنصات لقارئ واحد، كما يريد هؤلاء اليوم، ودون أن يُبيِّن لهم ما هو الأولى قراءته، أو يُلزم بعضهم قاعدة من قواعد هذا التجويد المزعوم. ومن المعلوم أن قراءتهم ليست واحدة من جميع النَّواحي. بل وليست كافية على رأي هؤلاء. وهذا الحديث يشهد عليها بالإخلال، حيث قال فيه النبي ﷺ: (اقرؤوا فكلٌّ حسن وسيجيء أقوامٌ يقيمونه كما يُقام القدح..). وهذا أكبر شاهد على أنَّهم لم يُقيموا حروفه حسب ماتتطلَّبها أحكام التجويد المحدث، فأقرهم النَّبي ﷺ، دون الفات إلى

---

[١] أخرجه أبوداود في سننه ١/ ٥١٠. والإمام أحمد في مسنده ٣/ ٣٩٧، ١٤٦، ١٥٥ والبيهقي في شعب الإيمان ٥/ ٥٧٥. وابن كثير في فضائل القرآن ص١٩٠.

شيء، أو إشارة، مع أنه فيهم العربيّ والعجميّ. ويعني جابر - راوي الحديث - العجمي: غير المحسن المجيد لتقويم الألفاظ. بل قال النبي ﷺ زيادة على ذلك: (وسيجيء أقوامٌ يُقيمونه كما يُقام القدح..). وذلك مشعر بإخباره ﷺ عن هؤلاء الذين يقيمون حروفه بالمدِّ والتمطيط والتَّصنيع اللُّغوي، ويُشعر هذا الحديث عدم مدحه ﷺ لهم، حيث قال: (يتعجَّلونه ولا يتأجَّلونه)، أي يتعجَّلون قبض الأجرة على قراءته في المحافل والجوامع والمآتم، ولايتأجَّلون ثوابه عند اللّه في الدَّار الآخرة.

فجميع هذه الوجوه التي ذكرناها، تنقض استدلالهم على وجوب التجويد بقوله تعالى: ﴿وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً﴾، وتوضح أنَّه ليس شيء في معاني هذه الآية يدلُّ على وجوب ذلك، حيث لم يُفسرْه النبيُّ الأعظم الذي أُنزلت عليه وتقيد بالعمل بها، ولم يومئ إلى شيء من ذلك. بل أقرَّ على خلافه، وقال بخلافه: وأومأ ونصَّ على ذم التزامه والعمل به، كما هو واضح في هذا الحديث، ومن

تقريره ﷺ في كل حين وآونة، ومن استمرار عمل السَّلف بخلافه، كما ثبت عن أمير المؤمنين عثمان رضي اللّه عنه، أنه كان يختم القرآن بركعة في الوتر (١)، وتبعه على ذلك كثير من الأئمة الأفاضل، فختموه في ليلة، ولو التزموا أحكام التجويد الصِّناعية من سائر أنواع المدِّ المزعوم وغيره، لما تمكنوا من قراءة ربع القرآن أو ثلثه ولو حدراً. واستدلوا في القراءة بعِدَّة أحاديث تُؤَيِّدُ ذلك.

الوجه الخامس: إنَّ هذه الآية، لو فرضنا عدم قيام جميع ماتقدَّم، فإنها ليست نصَّاً يُنْتَهضُ به دليلاً على حكم إيجابي، حيث أنَّها ظاهرة ومُؤَوَّلة، والظَّاهر المؤوَّل ضعيف الدِّلالة في القطعيات، فكيف يُستَدلُّ بها على وجوب التزام أحكام التجويد المصطنع وجوباً قطعياً،

---

(١) وروي أيضاً عن تميم الداري ومن التابعين عن علقمة بن مسعود ومجاهد بن جبر وسعيد بن جبير، وسليم التجيبي وروي عن البخاري أنه كان يختم كل يوم ختمة. وعن الشافعي أنه كان يختم في رمضان كل يوم ختمتين وفي غيره ختمة. ووجه ذلك أن الأمر يختلف باختلاف الأشخاص فمنهم من يستحضر المعاني والفكر أثناء قراءته، ومنهم خلاف ذلك، وفي كل خير. انظر التبيان للنووي ص ٣٠ وفضائل القرآن لأبي عبيد ص ٢٢٧، وفضائل القرآن لابن كثير ص ١٧٣.

بحيث يُخطَّأ من خالفه ويُضلَّلُ ويُهَدَّدُ بالتعرض للّعن أحياناً، وبالكفر أحياناً! تالله إنَّ هذا تعسُّف محض لم يرتكز على شيء من المنقول ولا المعقول، ذلك لأن النَّص في عرف الأصوليين، هو مادلَّ على معنى واحد قطعاً لايحتمل غيره أبداً. وهذه الآية عند هذا الحدِّ بمكان بعيد ظاهرة أو مُؤَوَّلة، ويَحُولُ دون ظهورها ما تقدّم. وكذلك يعارض تأويلهم لها ما تقدَّم، فيكون تأويلهم ليس بشيء، أو يصبح الاستدلال بها غير تام، ولو على أهون من ذلك.

الوجه السَّادس: إنَّ المفسِّرين اضطربوا في معاني هذه الآية، أي المقصود منها، كما هو مبسوط في مواضعه، مما يجعلنا نعتبرها مجملة، والمجمل لا دليل فيه⁽¹⁾، حيث التردُّد في معانيه بيِّن، فلا نُكلَّف بالعمل به حتى يُظهِره الرَّسول ﷺ من حَيِّز الإشكال إلى حيِّز التجلِّي والوضوح، بقوله أو بفعله. ولم يصدر فيه ﷺ بيان لوجوب حكم هذه الآية. فلم يلتزم بعد إذ أُنزلت عليه شيئاً من أحكام هذا

---

(١) في الأصل (عليه). ولعل الصواب ما ذكرناه.

التجويد الصِّناعي، ولم يأمرْ أحداً من أُمَّته أن يلتزم شيئاً منه، ولم يقصر القراءة عليه، بل قال بخلافه كما تقدَّم وكما سيأتي إن شاء اللَّه، وفعل أيضاً بخلافه كما تشهد بذلك قراءاته ستة أجزاء في ركعة من صلاة العشاء، وتكريره سورة الأعراف في المغرب، يقرأها كاملة في كل ركعة، كما وردت بذلك الأحاديث(١)، مما يدلُّ دلالة واضحة على أنَّه لم يقرأ كما قرأ أهل الأمصار. ولم يتلزم شيئاً مما التزموه، وكيف؟ وهو المبعوث رحمة للعالمين، صلوات اللّه وسلامه عليه.

الوجه السَّابع: إذا تجردت الحالة عن جميع ذلك مع استحالته، فإنَّ المقرر في أصولهم التي يعتمدون عليها، أنَّ الأمر يَدُلّ على النَّدب، فكيف يُصرف الأمر المتوجّه بهذه الآية على الوجوب إذا فرضت دلالته؟ كيف يعرفونه(٢) على الوجوب رأساً، دون التفات إلى أصلهم الذي أصَّلوه وبنوا عليه ما هو أعظم من ذلك على الندب؟! وهنا

---

(١) أخرجه الترمذي في السنن ٢/ ١١٣.

(٢) كذا في الأصل ولعل الصواب: يحملونه.

يلتزمون الأشدّ ويعكسون الحالة، وهذا الاضطراب ظاهر، وإشكال واضح لايخفىٰ علىٰ من له أدنىٰ نظر.

فبهذه الوجوه يتَّضح لك أيُّها القارئ الكريم أنَّ إيجابهم عليك التزام أحكام التجويد فاسد الوضع والاعتبار، ليس مرتكزاً علىٰ شيء سوىٰ التعسُّف والتعصُّب والانتصار الأعمىٰ لصنعتهم التي فرحوا بالاستئثار بها. فلا يهولنَّك الأمر. ولا تكترث بهذه الجعاجع والفراقع.

هذا وأعجب من ذلك استدلالهم علىٰ وجوب التجويد بقوله ﷺ: (رب قارئ للقرآن والقرآن يلعنه) (١).

فاستدلالهم علىٰ وجوبه بهذا الحديث من العجب العجاب، وربَّما انقلب هذا علىٰ أغلب المتنطِّعين من أرباب هذا الفن. حيث أنَّ هذا الحديث منطبق في معناه

---

(١) ذكره زكريا الأنصاري في شرح المقدمة ص٤٨. ولم أجده بهذا اللفظ في كتب السنة وأصله ثابت في صحيح مسلم (إذا نعس أحدكم في الصلاة فليرقد فإذا صلىٰ أحدكم وهو ناعس لعله يذهب ليستغفر فيسب نفسه) انظر مختصر الصحيح ص١٠٦.

علىٰ من يقرأ القرآن لفظاً مجرَّداً عن العمل بما فيه ، كما هو شأن أغلب قراء الأمصار المتنطِّعين أو المتكلِّفين في قراءته ، (حاشا العلماء العالمين) ، وإنما أولئك الَّذين لايعتبرون ، ولايصفون الحقَّ أو الحقيقة ، وإليهم أشار النَّبي ﷺ بقوله : (لايجاوز حناجرهم ، يتعجَّلونه ولايتأجَّلونه) .

ومن المعلوم أنَّ الغالب علىٰ قُراء هذا الزَّمان ، وخصوصاً في الأمصار ، أنَّهم يضبطون قراءته بقواعده اللَّفظية ومخارج حروفه ، ولكنَّهم أعطل النَّاس عن العمل به . ولاتقول في هؤلاء كما قال عبداللّه بن علي القصيمي الصعيدي(١) في صحيفة ١١٢ و ١١٣ و ١١٥ وغيرها من

---

(١) بل محل الشاهد في ص ١١٨ من كتاب عبدالله القصيمي المذكور ، ونصه :

(لا يقرؤون القرآن ولايجاوز حناجرهم . فالمراد من ذلك أنهم يكثرون تلاوته وهم لايفهمونه ولايعملون به . والناس يعلمون بأن الأزهر أكثر العالم الإسلامي قراءة للقرآن وأعمله بقواعده اللفظية وأضبطه لمخارجه ، وأحفظه لألفاظه . والمثل يضرب بمصر وبالأزهر إذا حفظ القرآن وتجويد مخارجه . . أما من جهة العمل فالناس يعلمون أنه لايوجد اليوم تحت الشمس أعمل من الوهابيين بالقرآن ولا أتقىٰ لله منهم ، ويعلمون أيضاً أن الحكومة العربية (السعودية) تستضيء بنور القرآن في جميع ما تأتي وما تذر ، في حين أن مصر وأكثر البلاد الإسلامية تتخبط بظلمات القوانين الأوروبية) .

كتابه «الفصل الحاسم»، ولكن نولّه ماتولّىٰ وحسبه اللّه ويكفيه.

ويكفينا أن نتمسَّك بالمنع من كون هذا الحديث النّبوي ليس دليلاً علىٰ وجوب التَّجويد، وإنما يدلُّ علىٰ أنَّ القرآن يلعن من يقرأه ولايعمل به، حيث إنه فيه التَّصريح بلعنة الظالمين والفاسقين والكاذبين، وكثير من أنواع العصاة والمذنبين، فالقارئ له، غير المؤتمر بأوامره، ولا منته عن نواهيه، هو الَّذي يلعنه، ولهذا كان النَّبي ﷺ يدعو بهذه الدَّعوات تشريعاً لأمَّته: (اللّهم اجعلني ممن يقيم حدوده، ولاتجعلني ممن يقيم حروفه، ويضيِّع حدوده)[1]. وربما يلعن القرآن من يقرأ سورة براءة ولايعمِّر مساجد اللَّه ولايؤمّها إلاَّ في يوم الجمعة.

كأنَّه لم تُقرأ عليه (براءة) ولم يتدبَّر (إنَّما) طيلة العمر

وربما يلعن الَّذي يقرأه ويحرف الكلم عن مواضعه أو

---

(١) لم أجده مرفوعاً إلىٰ النبي ﷺ وإنما ذكره مالك في (الموطأ ١/ ١٧٣) موقوفاً علىٰ عبدالله بن مسعود بصيغة الخبر.

يزيد فيه بأن يُؤَوِّل استوىٰ باستولىٰ، ويُؤَوِّل «العرش» (بالقدرة) ⁽¹⁾ إلىٰ غير ذلك ممَّا هو تغيير للَّفظ والمعنىٰ، ومشابهة لأهل الكتاب، وعزل للنَّص القرآني عن الاحتجاج بظاهره، وافتئات علىٰ اللّه ورسوله في تأويله، واعتقاد لعدم وفاء النَّص بالهدىٰ، وعدم إكمال اللّه الدين وإنزال ماهو كاف للإرشاد، أو تقصير من النَّبي ﷺ في تبليغه وتفسيره لما أوحي إليه من ربِّه. بحيث أنَّ جميع هذه لوازم تلزم المؤوّل لآيات القرآن، لاجرم أنَّ القرآن يلعنه لأنَّه جعل للفظ معنىٰ غير معناه، باصطلاح وضعه هو، وحَمَل لفظ الكتاب عليه حتىٰ نشأ من ذلك محذورات: كذب علىٰ الألفاظ، وكذب علىٰ من قالها. وكلاهما كذبان ⁽²⁾ مقبوحان، لكن تولَّد منهما أقبح وأقبح، وهو جحد الهدىٰ، وشهادة الزور. حيث يشهد المؤوِّل أنَّ المراد

---

(١) الأولى أن يقال: تحرف الألفاظ وتغير المعاني. والمعنى في الحالين ظاهر. والذين يؤولون الاستواء والعرش هم المعتزلة والأشاعرة، وبالأخص المتأخرون منهم في هذا العصر القائلون بوجوب التجويد وتأثيم من لم يجود في قراءته.

(٢) الأولى أن يقال: كلام كذب قبيح لأن المصادر لا تثنى ولا تجمع.

بالألفاظ غير حقيقتها كأنَّه أوتي أعظم مما أوتي رُسُلُ اللّه، فلم يسعه ما وسع النبي ﷺ، وأصحابه، والسَّلف الصَّالح من سادات القرون المفضَّلة، وخلفائهم المنصوص على فضلهم وعدالتهم. وأين هذا الحديث من الدَّليل على وجوب التزام التَّجويد الصِّناعي؟! تاللّه إنَّه لو استشهد به غيرهم على ذلك بتقديرات لايرونها هم، لبالغوا في الهجوم عليه، وفي تجهيله وتضليله، وسذاجته، وعدم معرفته، إلى غير ذلك، واللّه المستعان.

وأما قوله ﷺ: (من لم يتغنَّ بالقرآن. . إلخ) (١) فهذا حديث مجمل. ومع كونه مجملاً، فإنَّ معانيه المتردِّدة ليس شيء منها يدلُّ على استحباب قراءة الألحان، أو إيجاب التَّجويد ولا هو إليه، وذلك أنَّ العلماء حصروا معاني هذا الحديث في سبعة أوجه:

الأوَّل: الاستغناء به عن كتب الماضين.

الثاني: تحسين الصَّوت به، وهذا لايعضِّده شاهد قويٌّ

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه. انظره مع الفتح ١٣/ ٥٠١ عن أبي هريرة.

في اللُّغة كما يعضِّد غيره .

الثالث : [رفع الصوت][١] ، وهذا أيضاً كالوجه الثَّاني .

الرابع : الاستغناء به عن كلِّ ماسواه .

الخامس : أن يجعله هجِّيراه كما يجعل المسافر والفارغ هجيراه الغناء .

السَّادس: التَّشاغل به ، وهذا مستعمل كثيراً في اللَّغة ، تقول العرب : تغنى بالمكان ، يعني أقام به .

السَّابع : التَّلذُّذ والاستحلاء ، كاستحلاء أهل الطَّرب للغناء ، فأطلق عليه تغنياً حيث أنَّه يتلذَّذ بتلاوته ، ويجد لها حلاوة كما يجد ذاك حلاوة .

ويؤيد المعنى الأوَّل والرابع تفسير غالب علماء أهل

---

[١] مابين المعقوفين ساقط في الأصل .

السَّلف كسفيان وغيره، حيث فسَّروا (يتغنَّى): يستغن به، وقد أخرجه أبوداود، وابن الطبري، وصحَّحه أبوعوانة عن ابن أبي مليكة، عن عبيدالله بن أبي نهيك قال: لقيني سعد بن أبي وقَّاص وأنا أقرأ في السوق فقال: «تجار كسبة، سمعت رسول اللّه ﷺ يقول: «من لم يتغنّ بالقرآن فليس منا» (١) فهذا شاهد، وقد ارتضى أبوعبيدة تفسير (يتغنَّى): يستغن(٢). وقال: إنَّه جائز في كلام العرب، ويشهد لما ارتضاه قول الأعشى:

وكنتُ امرءاً زمناً بالعراق خفيت المناخ طويل التَّغني(٣)

أي كثير الاستغناء. وقول المغيرة:

كلانا غنيٌّ عن أخيه حياته ونحن إذا متنا أشدُّ تغانيا(٤)

---

(١) أخرجه البخاري انظره مع الفتح ١٣/ ٥٠١. وأبوداود في سننه عن سعد بن أبي وقاص انظره مع عون العبود ٤/ ٣٤٢ والدارمي في سننه ٢/ ٤٧١ والبيهقي في شعب الإيمان ٥/ ١٠١.

(٢) انظر غريب الحديث لأبي عبيد القاسم بن سلام ٢/ ١٤٠، ١٦٩ والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر للخلال ص ١٧٤.

(٣) انظره في لسان العرب مادة (غني) ١٥/ ١٣٦.

(٤) نسبه ابن منظور في (اللسان) إلى المغيرة بن حيناء التميمي. ونسبه السيوطي في شواهد المغني ص ٥٥٥ وفي همع الهوامع ٤/ ٢٨٢ إلى عبدالله بن جعفر بن أبي طالب.

فيكون المعنىٰ: من لم يستغن بالقرآن عن الإكثار في الدُّنيا فليس منا، ويكون معنىٰ الحديث الحثّ علىٰ مداومة القرآن، وأن لا يتعدَّىٰ إلىٰ غيره، وهو يؤول من حيث المعنىٰ إلىٰ ما اختاره البخاري وغيره من علماء السَّلف الذين لم يتلوَّثوا بالبدع، ولم يلحقوا علىٰ أحداث أوضاع التجويد والألحان المعروفين في هذا الزمان، فإنَّ السَّلف الصَّالح لم يختاروا من معاني التغني في ذلك الحديث إلاَّ تخصيص الاستغناء وأنَّه يستغنىٰ به عن غيره من الكتب المتقدمة.

وبعضهم قال: من لم يُغنِه القرآنُ وينفعهُ في إيمانه ويصدِّق بما فيه من وعد ووعيد فليس منا.

وما روي عن الشَّافعي من اختياره تفسيره بالتحزُّن، فلم يره المحقِّقون صريحاً عنه، وإنَّما قال المزني في مختصره: (أُحبّ أن يقرأ صدراً وتحزيناً) (١) أ.هـ. وقد تكلَّف من يرىٰ التَّفسير بالتحزن، أو حسن الصَّوت، فأدَّىٰ به تكلفه وتعسُّفه إلىٰ إنكار أن يكون (تغنَّىٰ) بمعنىٰ

---

(١) انظر التبيان في آداب حملة القرآن للنووي ص ٣٦.

(استغنىٰ) في كلام العرب، وهذا يعدُّ من السَّفسطة المردودة، حيث أنَّ ذلك شيء ظاهر في كلامهم. قال تعالىٰ: ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا﴾ (١). والشَّواهد الشَّعرية كثيرة لا نطيل بها المقام. ورواة الحديث وحفَّاظُه فسَّروه بذلك، ومن حفظ حجَّة علىٰ من لم يحفظ، وقد ذكر النَّبي ﷺ في الخيل: (ورجل ربطهما تعفُّفاً وتغنياً. .)(٢).

وهذا من باب الاستغناء بلا ريب، وكل سلفي متقن للحديث لم يتلوَّث رأيه بالبدع فسر يتغَنَّىٰ: يستغن، وراوي الحديث أَعرف بمعناه من غيره ولاسيما إذا كان فقيهاً. ويعضده ما أخرجه الطبري وغيره من طريق عمرو ابن دينار عن يحيىٰ بن جعدة، قال: جاء أناس من المسلمين بكتب وقد كتبوا فيها ما سمعوه من اليهود، فقال النَّبي ﷺ: «كفىٰ بقوم ضلالة أن يرغبوا عما جاء به نبيهم إليهم إلىٰ ماجاء به غيره إلىٰ غيرهم، من لم يتغنَّ بالقرآن

---

(١) في سورة الأعراف الآية: ٩٢. وفي سورة هود الآية: ٦٨.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه انظره مع الفتح ١٣/ ٣٢٩.

فليس منا» (١). فأنزل اللّه هذه الآية: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ (٢).

ويعضِّد تفسير التغنِّي بالاستغناء، اختلاف أهل العلم في قراءة الألحان بين الكراهة والتحريم مع عدم حصول اختلال الحروف، وإلا فكلهم مجمعون علىٰ تحريمها حينئذ، ولو كان تفسيراً بالتحزن ونحوه لما ساغ الخلاف وقوي.

والكلام في ذلك يطول بنا جداً، وإنما المقصود التنبيه علىٰ عدم صلاحية ذلك الحديث حجة للمتنطعين في القراءة، والمتأكلين بها، إذ هذا الحديث إمَّا أن يترجح في معانيه إلىٰ ما ذهبنا إليه فيكون حجَّة ظاهرة لنا عليهم ليس لهم، وإمَّا أن يتردَّد في تلك المعاني فيكون مجملاً لا يعمل به، ولا يُحتجُّ به حتىٰ يقوم دليل الترجيح، وقد قام معنا، ولذلك لم نجدهم احتجوا به في كتبهم (٣) بل ضربوا الذِّكر عنه صفحاً والحمد للّه ربّ العالمين.

---

(١) انظر التبيان في آداب جملة القرآن للنووي ص ٣٦.

(٢) في سورة الأعراف الآية: ٩٢. وفي سورة هود الآية: ٦٨.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه انظره مع الفتح ١٣/ ٣٢٩.

وأما استدلالهم علىٰ وجوب التجَّويد، وحظر القرآن علىٰ العامة بدونه بقوله ﷺ: «اقرؤوا القرآن بلحون العرب وأصواتها وإيَّاكم ولحون أَهل الكتاب والفسقة..»⁽١⁾. فهذا الحديث مع كونه مضطرباً⁽٢⁾، فإنَّه لايصلح دليلاً علىٰ ما ذهبوا إليه ولاُ ينتهضُ به حجَّة لهم، بل هو حُجَّة عليهم، ومن العجب العجاب استدلال أهل التجويد بما عليهم لا لهم، وما ذلك إلاَّ لغلبة حبِّ التَّجويد الصِّناعي المحدث علىٰ قلوبهم واستيلائه علىٰ أدمغتهم، حتىٰ أصبحوا يخبطون في الانتصار له خبط عشواء. وإلاّ فَدلالة هذا

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند ٣/ ٤٩٤ وأبوعبيد في فضائل القرآن ص٨٠ والفريابي في فضائل القرآن ص٢٤٤ والبيهقي في شعب الإيمان ٥/ ٥٨٠ وابن كثير في فضائل القرآن ص١٢٦.

(٢) نعم مضطرب في الإسناد والمتن. ففي إسناده عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه (رجل يكنىٰ أبا محمد) قال الهيثمي في مجمع البحرين ٦/ ١٢٢: (لايروىٰ عن حذيفة إلا بهذا الإسناد ـ أي وفيه هذا الرجل، وتفرد به بقية بن الوليد وهو مدلس وقد عنعن).

أما إنه مضطرب في المتن فمن حيث أن لحون العرب هي لهجاتها علىٰ حسب سجية كل قبيلة. وقد لا يستطيع الواحد من أفراد القبيلة آنذاك أن ينطق بسهولة لهجة القبيلة الأخرىٰ. والأمر بذلك حينئذ فيه حرج ومشقة، وما جعل الله في الدين من حرج.

الحديث دلالة ظاهرة على نفي هذا التّجويد في الصَّدر الأول، والنَّهي عن التزامه حيث أنَّ لحون العرب وأصواتها بخلاف ذلك، وقد نزل القرآن على عدّة قراءات تسهيلاً للقارئين(١)، وتيسيراً على المكلفين، وأمر رسول اللّه ﷺ أنّ يقرأ كلّ أحد القرآن على حسب لهجته وقدرته.

والمراد بلحون العرب هي لهجات الأعراب ولحنها على حسب سجيَّتهم، ولم يكلِّف أحداً بالتزام شيء من أحكام هذا التَّجويد المنتشر اليوم، بل أمر بعدم التزامه، أو نص وأومأ إلى خلافه.

وفي هذا الحديث النَّهي عن التزام بعض القواعد التي هي من مهمات هذا الفن المخترع، حيث قال: (وإيّاكم

---

(١) كما في حديث حكيم بن هشام في الصحيح. وحديث جابر: (خرج علينا رسول اللّه ﷺ ونحن نقرأ وفينا الأعرابي والأعجمي فقال: اقرأوا فكل حسن) أخرجه أهل السنن ومضى تخريجه. ووجه الاستدلال ظاهر، وهو: أن الأعجمي ليس لسانه كالعربي فهو يلحن وقد أجاز الرسول ﷺ قراءته إذ لو لم يلحن لما كان أعجمياً بل صار عربياً كما في الأثر (إنما العربية اللسان فمن تكلم العربية فهو عربي).

ولحون أهل الكتاب والفسق، فإنّه سيجيء أقوام يرجِّعونه ترجيع الغناء والنَّوح). وهذا من أكبر مهمات هذا الفنّ المحدث، الذي وقع كما أخبر به النَّبي ﷺ واقتضت به قلوبهم، وقلوب الذين يعجبهم شأنهم. وكما نصَّ على ذلك الصادق المصدوق بقوله: (مفتونة قلوبهم، وقلوب الَّذين يعجبهم شأنهم). وتاللّه إنَّ الأَمر كذلك، فإن أرباب هذا الفن المخترع قد افتتنوا به، كما افتتن أهل الكتاب بأوضاعهم التي بدَّلوا فيها قولاً غير الّذي قيل لهم، وأصبح هذا الفن هجيرىٰ أهله وغاية أمنيتهم ومبلغهم في العلم، وافتتن به من يعجبه شأنهم من الجهلة الذين لايفرقون بين السُّنة والبدعة، والصحيح والسَّقيم والقوي والوهين، وهذا الحديث مما يبطل شبهاتهم، حيث أنه حجَّة عليهم ينصُّ علىٰ ذمِّهم وذمِّ فعلهم، وذمِّ من يستحسنه. فواعجبا كيف يستدلون به علىٰ آرائهم المخالفة وشبهتهم المعكوسة؟ وكيف يؤوّلون شيئاً لايحتاج في تبيينه إلىٰ تأويل؟ حيث أنَّه قد تقرر عند أهل الأصول وعلماء المعقول أنَّ الكلام إذا أتىٰ بسياقه تبدىٰ المراد منه: أضحىٰ كنصّ

قاطع لايقبل التَّأويل . ذلك لأنَّ التأويل بعد التبيين تزييف ، ولابيان أَعظم وأوضح من قوله ﷺ : (اقرؤوا القرآن بلحون العرب ، وإيَّاكم ولحون أهل الكتاب والفسق ، فإنَّه سيجيء أقوام يرجعونه ترجيع الغناء والنَّوح به) . وفي رواية : (ترجيع الرهبانية) مفتونة قلوبهم وقلوب الَّذين يعجبهم شأنهم) . فهل هذا الحديث غني في نصِّه عن البيان ، أو هو مضمر يحتاج إلىٰ إظهار وبيان؟! حقاً إنَّ هذا نصٌّ قاطع لايقبل التَّأويل بل يستهجن تأويله أهل النَّظر والدَّليل كما قيل :

وإذا أتىٰ التَّأْميل بعد سياقه

تُبدي المراد أتىٰ علىٰ استهجان(١)

ولابد لنا أن نذكر قاعدة عامَّة هامَّة ، يجعلها القارئ المتمسّك بالحقّ ، معولاً يهدم به تأويل كلّ مؤول ، وشبهة كلّ متحرف ، ليستصحب الأصل والحقيقة في كلِّ أمر من أمور الشَّريعة ، ولايزحزحه عنه شبه المتأوِّلين والمحرِّفين ،

---

(١) انظر نونية ابن القيم ص ٥٣

لافي آيات التوحيد والصِّفات ، ولا في آيات الأوامر ، ولافي كلام سيِّد المرسلين ، فلا يتحرج من تأويلهم ، آية الترتيل ، ولا الأحاديث الواردة عنه ﷺ (كربٌ قارئ للقرآن ، والقرآن يلعنه) أو (اقرؤوا القرآن بلحون العرب) ونحو ذلك . والقاعدة هي : أنَّ كلّ من ادّعىٰ تأويلاً يخالف ظاهر الّلفظ ، لم تصح دعواه إلاَّ بأربعة أمور ، لو اختلَّ واحد منها فتأويله باطل مردود عليه :

أولهما : أن يأتي بدليل يدلُّ علىٰ قوله ، لأنَّه خلاف الأصل حيث أنَّ الأصل حمْل اللفظ علىٰ ظاهره وحقيقته . فمن ادَّعىٰ غير ذلك فعليه البرهان ، وأنَّىٰ له بالبرهان المقبول؟! . فإذا أتىٰ به طولب بالأمر . . .

الثـاني : وهو أنَّ ذلك الّذي تأوَّله إلىٰ ذلك المعنىٰ يحتمله ، لأنَّه لا بد أن يكون بين الألفاظ والمعاني ارتباط وتناسب ، لأنه إن كان من القرآن ، فقد أنزله اللَّه باللِّسان العربي ليعقله العباد إذا تدبَّروا ألفاظه ، وإن كان في السُّنة فالمصطفىٰ ﷺ أوتي جوامع الكلم ، ولايخاطب أمته إلاَّ بما

يعقلون، فهل يمكن أن يعقلوا أو يفهموا ما ليس له ارتباط ودلالة على المعاني من ذات اللّفظ ونفس العبارة، بحيث لايحتاجون إلى أمور خارجيَّة؟ . وبهذا نجّى اللَّه السَّلفَ الصَّالحَ مما وقع به من خلف السُّوء(١)، حيث كانوا أكمل علماً، وأعظم قدراً، فإذا أتى المُؤوِّل بما يدلّ ويحتمل ذلك المعنى الّذي عيّنه ـ وهيهات له ذلك ـ طولب أيضاً بأمر . . .

ثالث: وهو تعيينه المعنى الّذي تأوَّل اللَّفظ له، فهب أنَّ ظاهره غير مراد، فلا بدَّ من دليل يعين المعنى الذي حرَّمه(٢) إليه، ويخصّصه به، فإن التَّخصيص من دون دليل من باب التخرُّص والتكهُّن، لأنَّ اللّفظ قد لايدلُّ عليه بخصوصه، فقد يكون المقصود به معنى غير الذي عينه المؤول، وقد يكون اللَّفظ متعبّداً بتلاوته ولفظه، مجردا عن المعاني، وهو أولى من التأويل، الَّذي إما يجر إلى تحريفه أو إحراج، أو إتيان بمعان ما أنزل اللَّه بها من سلطان، فيكون التعبُّد أهون من ذلك، فإذا فرض أنَّ

---

(١) هكذا في الأصل ولعل الصواب: من خلفهم من أهل السوء.

(٢) هكذا في الأصل ولعل الصواب: حرفه إليه.

المؤوِّل تأوَّل النَّص على غير ظاهره، وأتى بدليل على الاحتمال وعلى التعيين، طولب أيضاً بأمر: . . .

رابع: وهو الجواب عن المعارض، لأنَّ الدَّعوى لا تتم إلاَّ بذلك، والمعارض هو بقية النُّصوص التي اطردت بدون إشارة أو إيماء، أوتنصيص على شيء مما ذكره المؤوِّل، وأنّى له أنْ يأتي بجواب عن المعارض، إذا فرضنا أنَّه تمَّ له ماتقدَّم ـ فهذه الأسئلة قاعدة تبطل شبه المؤوِّلين.

وهناك قواعد أخرى مفحمة كهذه أو أعظم، لانطيل بها المقام. فيكفيك أيُّها القارئ أنْ تفهم بهذا، أَنه لاسبيل لعلماء التجويد على إيجابه عليك، وإلزامهم إيَّاك به، ولكن لما أشرب في قلوبهم حبُّ هذه الصّناعة التي يتأكَّلون ويفخرون بها على الجهَّال، فلا عجب إذا استدلوا بمثل ماتقدَّم، أو حشروا أقاويل عديمة الصِّحة أو عديمة الحجية، عن «علي» وغيره كما سنوضحه، وكما وضع من غلب عليه حبُّ النحو حديث: (تعلموا العربيَّة وعلموها أولادكم، فإنَّها كلام الرَّبّ جلَّ جلاله يوم

القيامة)[١]. وكما حشر من غلب عليه حبُّ الفرائض، الأحاديث الضعيفة في شأنها وأكرم به من فنّ، لا يقاس بغيره، وإنَّما هذا شأن من غلب على طبعه حبّ شيء.

وأَهل التجويد لَمَّا لم يجدوا نصّاً صريحاً بالأمر به والحث عليه، أخذوا يلتمسون المتشابهات التي ربما يروِّجون بها بضاعتهم، ويضيعون على مخالفيهم، ومن لم ينح نحوهم ليوهموهم أنَّهم متبعون، وما هم في الحقيقة إلاَّ مخترعون وملتزمون شيئاً لم يلزمهم به ربُّ العالمين، ولا كان من هدي سيِّد المرسلين ﷺ، كما مضى توضيحه سابقاً من حديث جابر بن عبدالله قال: خرج علينا رسول اللّه ﷺ ونحن نقرأ القرآن، وفينا العربيّ والعجميّ، فقال: (اقرؤوا فكل حسن).

ومعلوم في عرف الأصول، ماجاء في ذكر الحكم عقيب الوصف ـ بالفاء ـ فالرَّسول الأعظم يقرهم على

---

[١] تعلم العربية وتعليمها وإعراب القرآن ثابت، فيه آثار كثيرة عن الصحابة والتابعين. انظر على سبيل المثال: فضائل القرآن لأبي عبيد ص٢٠٨ وسنن سعيد بن منصور ٢/ ٢٧٠. وفضائل القرآن لابن كثير ص٢٠١. أما جملة (فإنها من كلام الرب جل جلاله يوم القيامة) فلم أجدها في كتب الحديث والآثار.

اختلاف لهجاتهم، وعدم أدائهم حسب أوضاع التجويد، كما هو مفهوم من هذا الحديث، دون أن يأمرهم بالتزام أوضاع هذا التجويد الصناعي، ودون أن يلزمهم ويأمرهم بالإنصات لقارئ واحد يقرأ بما يشبه الغناء، كما يريد هؤلاء الذين لم يفكِّروا فيما ينشأ عن ذلك من المفاسد، والأمر بالإنصات عن الكلام؛ لأنَّه متوجه على من لم يقرأ، فلا ينبغي له أن يخوض في الكلام بحضرة من يقرأ كتاب اللّه. وأمَّا إسكات القارئين وإلزامهم أَنّ ينصتوا لقارئ واحد متقيِّد بهذه الأوضاع المحدثة، فهذا مما لم تنص[1] عليه الشريعة. ويعظِّم الفرية من يريد منع أُمَّة محمّدٍ ﷺ عن قراءة القرآن.

وهذا الحديث من جملة الشواهد على مشروعية اجتماع المسلمين في بيوت اللّه لقراءة القرآن على حسب مقدرتهم دون تقيد بشيء مما أحدثه متبعو هؤلاء.

فيا عباد اللّه، لاتكترثوا بأقوالهم، واقرؤوا كتاب اللّه على حسب ماتسمح به لهجتكم، وألقموا من يسكتكم

---

(١) هكذا في الأصل ولعل الصواب: تبين سننه.

عنه حجراً، وشكوا بهذا الحديث.

ثم ألقموه حجراً آخر بالحديث الّذي رواه مسلم في صحيحه، وأبوداود في سننه، عن نبيّكم ﷺ حيث قال: (ما اجتمع قوم في بيت من بيوت اللّه يتلون كتاب اللّه، ويتدارسونه بينهم إلاَّ نزلت عليهم السَّكينة، وغشيتهم الرَّحمة، وحفَّتهم الملائكة، وذكرهم اللّه فيمن عنده) (١).

واستمسكوا عباد اللّه بالبراءة الأصلية، ومنع الإيجاب عليكم بدون دليل، حيث لم ينص في هذا الحديث على نوع من القراءة دون آخر، ولم يقيِّد القراءة لهذا المجتمع المرحوم(٢) بشيء من الأوضاع المزعومة لدىٰ علماء التجويد.

ثم ألقموه حجر السّكوت ثالثاً: بالحديث المتَّفق عليه عند أحفظ الحفَّاظ عنه ﷺ: (الماهر بالقرآن مع السَّفرة الكرام البررة، والّذي يقرأ القرآن ويتتعتع فيه، وهو عليه

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه ٤/ ٢٠٧٤ وأبوداود في سننه ٢/ ٧١ وابن ماجة في سننه ١/ ٩٩.

(٢) كحديث أبي هريرة (أمتي مرحومة قد رفع عنهم العذاب إلا عذاب أنفسهم بأيديهم) انظره في مجمع البحرين ٧/ ٢٨٥.

شاق، يؤتىٰ أجره مرتين. (له أجران)⁽¹⁾. فإنَّ هذا الحديث صريح في تصويبكم، وتخطئة من أراد إحراجكم، والحيلولة بينكم وبين كتاب اللّٰه.

ثم ألقموه حجر السُّكوت، رابعاً: بالحديث الصّحيح عنه ﷺ: (من قرأ القرآن فأعربه، فله بكل حرف عشر حسنات، ومن قرأه ولحن فيه، فله بكل حرف حسنة)⁽²⁾. وقد نصّ الحفَّاظ ـ رحمهم اللّٰه تعالىٰ ـ علىٰ صحَّته، ويشهد العقل والنَّقل بصحته، كالّذي قبله؛ حيث أنَّه موافق لسماحة الدّين، وأسس الشريعة الرَّامية إلىٰ التيسير للمسلمين، والتبشير للمؤمنين. وليس في المعقول والمنقول مايدفع ذلك حتىٰ ولو لبسوا الحقائق، وهوَّلوا الأمر بقولهم إنَّ الذي يقرأ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾، بعدم تشديد الياء، يكفَّر لإخلاله بالمعنىٰ، أَو قرأ ﴿أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه ١/ ٥٥٠. والبخاري تعليقاً، انظره مع الفتح ١٣/ ٥١٨ والترمذي في سننه ٤/ ٣٤٨.

(٢) هذا الحديث بهذا اللفظ غير صحيح انظر طرقه في شعب الإيمان للبيهقي ٥/ ٤٤١. أما معناه فثابت في حديث عائشة في الصحيح: (الماهر بالقرآن مع السفرة الكرام البررة والذي يتتعتع فيه وهو عليه شاق له أجران).

وَرَسُولُهُ﴾⁽¹⁾، بكسر اللام، إنَّه يكفُر لإحالته المعنىٰ، وإيهامه أنَّ اللّه بريء من رسوله. وهذا التَّكفير من مستشفات قولهم، حيث أنَّه يصادم النصوص الشَّرعية من الكتاب والسُّنة.

أما الكتاب، فقوله تعالىٰ: ﴿رَبَّنَا لا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾⁽²⁾ وقوله: ﴿وَلَكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا...﴾⁽³⁾. وغير ذلك من الآيات الدَّالة علىٰ عدم مؤاخذة اللّه لعباده في غير ماتعمَّدوه وأصروا عليه، وعاندوا واستكبروا به، وقامت عليهم الحجَّة بذلك وفهموها حقَّ الفهم.

وفي السُّنة: قوله ﷺ: (رفع عن أمَّتي الخطأ والنِّسيان، وما استكرهوا عليه)⁽⁴⁾. وقوله ﷺ: (إنَّما الأعمال بالنِّيات، وإنَّما لكلِّ امرئ ما نوىٰ)⁽⁵⁾. انظر

---

(١) سورة التوبة: الآية: ٣.

(٢) سورة البقرة: الآية ٢٨٦.

(٣) سورة النحل: الآية ١٠٦.

(٤) الحديث صحيح. انظر رواياته وطرقه في التلخيص الحبير للحافظ ابن حجر ١/ ٢٨١.

(٥) متفق عليه. انظر اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان ص٤٩٦.

الفرق الشَّاسع بين ما حصره الرَّسولﷺ ، وما أطلقه هؤلاء ليتبيَّن لك العجب ، كيف نكفِّر علىٰ زعم هؤلاء من غلط في قراءة القرآن ، أو جهل فنصب المجرور ، أو جرَّ المنصوب ، أو خفَّف المشدَّد علىٰ فرض إخلاله بالمعنىٰ من غير تعمُّد لسانه ، ودون أن يكون في ضميره ما ألزموه به من المعنىٰ اللازم لدىٰ التَّعسف والمكابرة؟ .

حقاً إنَّ هذا التَّكفير الصَّادر منهم مصادم لمراد اللّه ورسوله . ولو كان هذا السَّهو والخطأ إذا جرىٰ من المكلَّف بقراءة القرآن يكفِّره ، لبيَّنه الرَّسولﷺ وحذَّر منه أشدَّ التّحذير ؛ حيث أن قراءة القرآن من أكثر ما يعظم التكليف ، وأكثر ما حثَّ الشَّرع عليه ، ولم يخصِّصها الرَّسول للمهرة فحسب مما أوضحناه سابقاً . ولو كان الأمر علىٰ ما يقولونه ، لكان الرَّسول أوَّل محذِّر منه ، ، مبّين له ، حيث أنَّه بالمؤمنين رؤوف رحيم . واللّه سبحانه وتعالىٰ أرأف منهم وأرحم . وماقول هؤلاء في جانب كلام اللّه بشيء ، وليسوا إلاَّ متحاملين علىٰ غيرهم ، وغامطين جميع أعمالهم ، ومعتقدين أنَّهم ليسوا علىٰ شيء . وهذا هو التحيّز بعينه ، الّذي دائماً ينهون عنه ، ويرمون به سواهم .

وما كنَّا نألف من إخواننا الأزهريين ذلك التَّشديد البشع وذلك التنطع والتكلف والتفسير، ولسنا لهم بلائمين، أو موجهين ما تقدم من المناقشة على الاستدلال بما ليس بدليل، حيث أنهم مقلدون من صنف في التجويد، وانتصر له بغير جدوى لغلبة حبِّه على طبعه، ولكنَّا موجهون الكلام إلى كلّ متعسِّف في ذلك، موجب له. ومستغربون أن يؤول الأمر بهؤلاء الإخوان إلى تعظيم ما زبَره أولئك، حتى يكفروا العامَّة بأغلاطهم. ولا زلنا نجلهم عن ذلك، ونأمل أن لايصدر من أمثالهم، إذ من عاداتهم الجميلة التيسير حسب مانصَّ عليه الشارع. وهذا التفسير والتنفير الّذي جرى منهم مخالف لسجاياهم المعهودة، والتكفير أمر عظيم، نجلهم عن أن يرموا به أحداً من الأفراد، فضلاً عن السَّواد الأعظم، وما كنا نأمل من أمثالهم إقلاق راحة النَّاس وإزعاجهم وإيقاعهم بالحيرة والشُّكوك في أمر القرآن، وجعلهم يستغيثون مما أحرجوا في شأنه. تاللّه إنَّها بادرة لا تتصوّر حيث أنَّها مغايرة لمبادئ الدِّين، ومخالفة لمقتضى التشريع الإلهي كما تقدم في رفع الإصر والحرج والتَّيسير. وقد قالﷺ (يسِّروا ولاتعسِّروا، وبشِّروا

ولاتنفِّروا، إنما بعثتم ميسِّرين)(١). إلىٰ غير ذلك من النّصوص التي طالما تمسَّكوا بها في التيسير بما يعظم الخطب به، ولانطيل المقام بذكره.

ولكن يا ليت شعري، أين الذي يتكلَّم في شأن التَّجويد والتزام أحكامه وتحريم مخالفته أحياناً، والكفر أحياناً، للإخلال بمقتضاه ونحو ذلك؟ أين هو من ترجمة(٢) القرآن بلغات الأعاجم مما سطوا به سطوة هدَّامة، حيث أذهبوا وذهبوا بالإعجاز الّذي هو صبغته العليا وقيمته الكريمة، التي أذعنت بواسطتها الجبابرة، وأفحمت البلغاء والفصحاء، وحصل بها التَّحدي بأقصر سورة، فلم يستطيعوا أن يأتوا بسورة من مثله(٣). وبهذه التَّرجمة والتحويل إلىٰ لغات الأعاجم زال إعجازه وذهب، وأصبح لدىٰ السَّامعين الأجانب كالأقاصيص التي في الأناجيل

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه انظره مع الفتح ١/ ١٦٣ ومسلم في صحيحه ٣/ ١٣٥٨.

(٢) يعني ترجمته ترجمة حرفية وهي مستحيلة والصواب أنها تفسير معاني القرآن والتفسير كلام البشر لا كلام اللّه.

(٣) كما قال اللّه تعالىٰ ﴿قل لئن اجتمعت الإنس والجن علىٰ أن يأتوا بمثل هذا القرآن لايأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً﴾. والقرآن يطلق علىٰ كله وعلىٰ بعضه ولاسيما وهذه الآية نزلت بمكة قبل تمام نزول القرآن.

المعرَّبة عندنا، ولم ينتفع به انتفاعاً محسوماً غير دعاية الأكالين، ولو لم يترجم أبداً، ونشر بين جميع الطوائف كما أنزله اللّه بحاله في الإعجاز، وعلىٰ الأخص في هذه الأزمنة، لكان له تأثير عظيم، أعظم أضعافاً من نشره مترجماً وتحولاً عن حاله التي ارتضاها منزله عزَّ وجلَّ، ولاسيما وقد يسَّر اللّه القرآن للحفظ، وأعان عليه من أراد حفظه ومعرفته للاتعاظ به، قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾⁽¹⁾.

وأمَّا ما يتلىٰ على المسامع في نوافذ الأثير، وأبواق الدّعايات، فهو أيضاً قد خرج به عن شرف مكانته، وعلوّ رفعته إلىٰ حدِّ الغناء، وامتزج بالألحان التي تشكِّك فيه مسامع ذوي الطِّباع السَّليمة السَّويَّة، الّذين لم يعرفوا عنه شيئاً ولم يألفوه، فأصبح القرآن غير متَّبع بتلاوته السَّبيل السَّوي، المأمور به، الموجب لحضور القلب، الموجب للتدبر والخشوع، الموجبين ببلوغ الإيمان والسَّعادة، فقد خالفوا مقصود اللّه ورسوله من معنىٰ الترتيل حتَّىٰ خرجوا

---

(١) سورة القمر. الآيات: ١٧، ٢٢، ٣٢

به إلىٰ هذه الحال الّتي لن تزيده محبّة في القلوب، محبَّة صحيحة مرتكزة علىٰ معرفة وفهم وتعظيم موجب للعمل به كما هو مقصود الشَّارع.

وأما قولهم بلزوم الاقتصار علىٰ الصَّلاة علىٰ النَّبي ﷺ لمن ليس ماهراً بالتجويد، فهذا أمر محدث لم تنص الشَّريعة عليه، ولم يجر عليه عمل الصَّحابة والسلف الكرام من القرون المفضلة، ولم يؤثر عن أحد منهم القول بذلك. بل إنَّ الأمر على خلافه من لزوم تلاوة القرآن في المساجد لكل فرد حسب استطاعته كما قدمنا توضيحه. ولو كان ما ذهبوا إليه أفضل من قراءة القرآن لغير المجودين كما زعموا، لنصَّ عليه النَّبي ﷺ وبيَّنه وأرشد إليه، وصرف إليه كل من رآه غير محسن للقراءة، ولم يقل بـ (اقرؤوا، كلٌّ حسن)، ولم يطلق الأوامر بالقراءة، وترتيب الأجور حسب ما ذكره من غير تقييد. والنبي ﷺ أوتي سنن الهدىٰ، وعلَّمها أمَّته، وأرشدهم إليها، وأوضح لهم ماهو أفضل وأولىٰ، ويبين للأمة المكفرات من الذنوب، وأرشدهم إليها، وإلىٰ ضروب كثيرة من أفعال الخير

والإحسان والأذكار المأثورة عنه، وسمَّاها صدقات، ولم ينص على أنَّها في حالة من الحالات أفضل من قراءة القرآن. ومن المستحيل أن لاينقلهم إلى الأفضل، ولم ينقل عنه أنَّه نبَّه الأمَّة على هذا الَّذي اخترعه علماء التجويد ومقلدوهم. والرَّسول الأعظم صلوات اللّه وسلامه عليه من مهمات أمره وهدايته إرشاد أمَّته إلى ماهو أفضل ونقلُهم إليه، وهو أشفق بالمؤمنين، وأرحم من هؤلاء الّذين قالوا ماقالوا. ويكفي لإبطال ماقالوا الحديث المتَّفق على صحته عنهﷺ: (من أحدث في أمرنا ما ليس منه، فهو ردّ)(١) أي: (مردود عليه).

وأمَّا حثهم النَّاس على شراء «دلائل الخيرات»، وقراءتها في المساجد بدلاً عن القرآن لمن ليس ماهراً في قراءته على ما يزعمونه، فهذا غلط فاحش، وقلَّة فرقان بين الحق والباطل، قلَّة فرقان بين المفضول والفاضل، قلة فرقان بين هدي صاحب الشَّريعة وما زبرته الأيدي المبتدعة الوضيعة، قلَّة فرقان بين وحي الرَّحمن، وقشور الأفكار

---

(١) متفق عليه انظر اللؤلؤ والمرجان ص ٥٣١ .

والأذهان، قلَّة فرقان بين الاتباع والابتداع، قلة فرقان بين الرِّفعة والضَّعة، قلَّة فرقان بين السنة المطهرة، والمحدثات المنفّرة، قلّة فرقان بين الصَّحيح والسقيم، والقوي والوهين، والغث والسمين، قلَّة فرقان بين تعاليم سيِّد المرسلين وإرشاده، وبين تعاليم غيره من المنتحلين، قلَّة فرقان بين سبيل المؤمنين وسبيل المنحرفين، قلَّة فرقان بين ماجاء به الرَّسول وبين ماسطَّره أصحاب الخمول، قلَّة فرقان بين الدِّين الصَّحيح والهمجية، قلّة فرقان بين ما تقبله العقول السَّليمة وماتردُّه، قلّة فرقان بين ما يستسيغه الطّبع وما يمجُّه.

واستبدال قراءة القرآن (بدلائل الخيرات) قول تنفر منه الطباع وتمجُّه الأسماع، ولا يقوله ولا يقره إلاَّ من ألف البدع، واستولىٰ علىٰ قلبه حبُّها (ففقد ضميره كل فرقان)، إذ يترتب علىٰ هذا القول هجر القرآن الموجب لضياعه وعدم حبِّه واتباعه.

فالعوام اليوم ليس عندهم سنن الهدىٰ والباقيات الصالحات سوىٰ قراءة القرآن في المساجد، فإذا حيل بينهم

وبين ذلك بهذه الدَّعاوىٰ والمزاعم، فقد اتخذت الأمَّة كتاب اللّه مهجوراً، وكتاب (دلائل الخيرات) معموراً، وذلك الكتاب الّذي مزجه صاحبه بأدعية غير مأثورة، وتوسُّلات مبتدعة، وصلوات مخترعة، فيها من الجُمل المنكرة ما لا يقره المنقول، ولاصريح المعقول، بل في هذا الكتاب ما يصادم النّصوص، ويخالف مقتضىٰ التشريع، ويخل بمقصود العبودية التي أرسلت من أجلها الرُّسل، وأنزلت من أجلها الكتب، وفيه من الصَّلوات والتَّسليمات المبتدعة ما فيه، ومن ذلك قوله: (اللّهم صلِّ علىٰ محمَّد وعلىٰ آل محمَّد حتّىٰ لايبقىٰ من صلواتك شيء، وبارك علىٰ محمَّد وعلىٰ آل محمَّد حتىٰ لايبقىٰ من بركاتك شيء ولا من رحمتك شيء..)(١) فإلىٰ العلماء، أو إلىٰ العقلاء مافي هذه الجمل من اللوازم الفاسدة، التي أهون أحوال صاحبها، أن يكون جاهلاً يستحق التعليم والإرشاد، فإن أبىٰ، ولزم العناد، يستوجب العقوبة والتَّعزير علىٰ ما يقتضيه الشَّرع حسب أحواله، كما نصَّ علىٰ ذلك العلماء

---

(١) انظر دلائل الخيرات ص ٤١.

المتبعون لآثار السَّلف، حتىٰ قالوا: لا يصلىٰ خلفه إن كان إماماً، ويجب عزله وتحويله ـ هذا من ثمرات هذا الكتاب ـ ومن أهون مافيه: (اللهم صلِّ علىٰ محمّد وعلىٰ آل محمّد بعدد كلّ داء ودواء وعدد النمل والحشرات)(١). فأي دين صحيح يقتضي هذا؟ أم أي عقل صريح يرتضي هذا؟! تالله لايقتضيه إلاَّ الدين المشوب بالبدعة، ولا يرتضيه إلاَّ المشوب بالهمجية القُحّة. كيف يعظم محمّد وآل محمّد من يحصر الصَّلاة عليهم بعدد كل داء ودواء، بعدد الأوبئة القذرة وجراثيمها؟ أليس له مندوحة عن هذا؟ أم ليس له تعداد أحسن من هذا؟ كلاّ إن البدع التي كادت أن تطمس معالم الّدين، لولا أن تكفَّل بحفظه ربُّ العالمين.

وفي هذا الكتاب، وفيه مما لا نطيل بذكره، ونكتفي بما قلنا، عسىٰ أن يكون كافياً لاستهجانه وهجره، ومع هذا فأكثر الأدعية فيه غير مأثورة. والرَّسول ﷺ علَّم أمَّته جملاً من الأدعية الصَّحيحة النافعة، الّتي فيها ضمان صلاحهم في دينهم ودنياهم، بجوامع من كلمه الطَّيب ﷺ. وعلّم

---

(١) انظر المصدر السابق ص ١٢٧.

أمّته آداب الدُّعاء وأوقات الإجابة، وما لهمن الشروط التي لاشيء منها في ذلك الكتاب. والقرآن فيه أدعية جليلة القدر، جامعة لخلال الخير.

ولاريب أنَّ تسمية هذا الكتاب (بدلائل الخيرات) تسمية خاطئة؛ لأنه اسم خالف مسماه، ولفظ لم يطابق معناه، فهو جدير بعكس ذلك، فلو كان هذا الكتاب خالياً ونقياً من جميع ماتقدم، لما جاز لمسلم أن يصرف النَّاس إليه ويحثّهم عليه، بدلاً من قراءة القرآن الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، والّذي فضله على غيره في سائر الكلام كتفضيل اللّه على سائر خلقه، كما ورد لذلك الحديث القدسي (من شغله القرآن عن مسألتي أعطيته أفضل ماأعطي السائلين. وفضل كلام اللّه على سائر الكلام كفضل اللّه على خلقه)(١).

فالله أكبر! كيف تؤُولُ الحال بمسلم لأن يحبذ قراءة (دلائل الخيرات)، فضلاً عن أن يوجبها، ويقصر العامة

---

(١) أخرجه الترمذي في السنن ٥/ ١٨٤ وقال حديث حسن غريب. والبيهقي في شعب الإيمان ٤/ ٥٨٠ والدارمي في مسنده ٢/ ٤٤١.

عليها، بدلاً من القرآن الذي يحصل من كثرة قراءته تعميم نشره، وإيجاد محَبته في قلوب المسلمين، وانبعاثهم إلىٰ اتباع إرشاداته وأوامره، وارتداعهم عن نواهيه وزواجره، وقوَّة نشاطهم في العبادة لفهم حقيقة العبودية، وتذكيرهم بأيَّام اللّه، وتخويفهم ووعدهم ووعيدهم، وتنظيم أمر دينهم ودنياهم، وما يحصل بكثرة قراءته من قوة التصديق والإيمان، ومعرفة آلاء الرَّحمن وزيادة تعظيمه وحبّه، ومايبنثق في قلوبهم من المعرفة الصحيحة بالوحيين، والإيمان بالغيب والبعث والنشور، والتَّصديق بيوم الحساب الذي لايحصل إلاَّ بكثرة تدبّره والتفكر في أمثاله وعِبره، ولاسيما في هذه الأزمنة الَّتي كثر فيها الإلحاد، وإنكار الحقّ والمعاد.

كيف يسوغ من عاقل أن يدعو النَّاس، يصرفهم عن قراءة كتاب اللّه بأيَّة مزاعم ودعوىٰ إلىٰ قراءة (دلائل الخيرات)؟! أيريدهم أن يرجعوا القهقرىٰ، ويكون سعيهم للدّين والدنيا إلىٰ الوراء؟ إذ ماذا ينتفع قارئها في هذه الأزمنة؟ وماذا يكسب أو يستفيد؟ أم ماذا يحصل عنده من الملكة لو عكف عليها طول عمره؟ أو أوتي زيادة علىٰ عمره كعمر نوح عليه السَّلام؟ ماذا يستفيد منها؟! هل يستفيد في

قراءتها رفعة الدَّرجات بما قدَّمناه من سوء جُملِها؟ وفساد لوازمها الموجبة لنبذها؟ أم يستفيد قوة في إيمانه ونوراً في قلبه وذكاءً وزكاءً في عقله كقراءة القرآن؟ وهل يجمع بقراءتها من المصالح ما يجمعه بقراءة القرآن؟ وهل يستفيد قارئها ـ طيلة عمره ـ زيادة فرقان بين الحقِّ والباطل والصَّحيح والسَّقيم؟ أم هل يستفيد من قراءتها نور اليقين؟ أم هل يستضيء بنور الوحيين، ويستبين له في هذا العصر أوضح النَّجدين؟ أم يبقىٰ في طور الهمجية جامداً وفي الجهل هامداً؟ .

حقَّاً إن الواجب علىٰ كل مصمّم أن يدعو النَّاس إلىٰ نبذ هذا وأمثاله من كتب المتصوفين وآراء الممخرقين والمتهوكين، أو المغفلين المبتدعين، وأن يحث النَّاس علىٰ فهم دينهم فهماً صحيحاً ، وذلك الفهم لايحصل إلاَّ بالاعتناء بالكتاب والسنة ، ولايحصل تعظيم السُّنة والإقبال عليها إلاَّ بعد الإقبال علىٰ كتاب اللّه الّذي لا تنقضي عجائبه، ولا تنحصر فوائده، ولايخلق من كثرة التِّرداد، بل يزداد قارئه زيادة محسوسة في عقله ودينه، في إيمانه، وإحسان في تفكيره وتدبيره، في علمه وفي عمله،

في أخلاقه وسيرته، حقاً إنَّ من أوجب الواجب على كل عالم أن لا يُخْضِع العالم[١] لما زبرته الأيدي الغالطة في الكتب التي غلب على أهلها التَّصوف والحمق والجبن والجمود، أو سلامة الصَّدر وسذاجة الضَّمير الموجبة لتمكن التَّقليد، والأخذ بكل ما قيل ونقل من غير بحث أو دراية، وأن تكون هِمَّة العالم جيِّدة في التَّمحيص لدى مراجعة كل مصنَّف في أي فن، والبحث عن الدَّليل وصحة التعليل، وعدم استشعار مكانة المصنِّف أو تعظيمه لدى قراءة مصنّفه، فإنَّ ذلك من أكبر الحوائل دون تحقيق ذلك، وأن تكون غايته السّير بالنَّاس على نهج السَّلف الصَّالح عسى أن يسلك بهم الصِّراط السَّوي، وينتظموا في سلك الفرقة الناجية الّتي نصَّ عليها الرَّسول ﷺ بقوله: (ماكان عليه أنا وأصحابي)[٢].

والعالم الأزهري نرى أنَّه جدير بذلك، فنرجو أن لايخيِّب آمالنا ويرجع القهقرى، بل تكون همته طلب

---

(١) أي: الناس.

(٢) أخرجه الترمذي في السنن ٥/ ٢٦ وقال: حديث غريب والحاكم في المستدرك ١/ ١٢٨ وخالفه الذهبي.

الحقِّ بدليله، ونبذ ما سواه، وعدم الاعتقاد بشيء من المحدثات المضلِّلة.

ونختتم هذه العجالة بفائدتين:

الفائدة الأولى: إن كلَّ محدثة في الدِّين ضلالة مهما كانت؛ إمَّا لذاتها، أو لأمر لازم لها، ولو قيل: إنَّ بعض المحدثات حسنة، ووجه كون الجميع ضلالة من ناحيتين: أمّا في المحدثة السيئة فظاهر الضَّلال ما يترتب عليها من الإثم الذي توعَّد عليه الشَّارع، ومن مخالفة سننه وهديه ﷺ، وأما في الأخرىٰ علىٰ قول من قال: في المحدثات محدث حسن، هو ما يترتَّب عليها من ترك السُّنة وحصول الشِّقاق والتَّفرق المحدث لحصول الخلل في صفوف المسلمين كما هو واقع في عدة قرون، ومنشؤه المحدثات، تأوَّلها محدثوها بالحسن وجعلوها ديدنهم.

والبدع منشؤها في أمرين: الأول: الجهل بالسُّنة ومآخذها الصَّحيحة ومقاصدها السَّامية. والثاني: التَّأويل الّذي هو في الحقيقة جناية علىٰ الدِّين والمجتمع كما قال ابن

القيم لله درّه :

هذا وأَصلُ بليَّةِ الإسلام من
أْويل ذي التَّحريف والبطلان
وهو الذي قد فرَّق السَّبعين بل
زادت ثلاثاً قول ذي البرهان

إلىٰ أن قال :

وجميعُ مافي الكونِ من بدع وأحـ
داث تخالفُ موجب القرآن

فأَساسُها تأْويلُ ذي البطلان لا
تأويلُ أَهلِ العلمِ والإيمان
تأويلُ أهل الباطل المردود عنـ
د أئمة العرفان والإيمان
وهو الذي لاشكَّ في بطلانه
واللّهُ يقضي فيه بالبطلان
فجعلتُم للفظ معنىً غير معنا
هُ لديهمْ باصطلاح ثاني

وحملتُم لفظ الكتاب عليه حتـ
ىٰ جاءكم من ذاك محذوران
كذب على الألفاظِ مع كذب على
من قالها كذبان مقبوحان
وكلاهما أمران أَقبح منهما
جَحدُ الهدىٰ وشهادةُ البهتان
إذ يشهدون الزُّور أنَّ مرادَه
غيرُ الحقيقة وهي ذو بطلان(١)

وقد قال ﷺ: (عليكم بسنَّتي وسنة الخلفاء الراشدين من بعدي، عضّوا عليها بالنَّواجذ، وإيّاكم ومحدثات الأمور فإنَّ كلّ محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة)(٢). فقضىٰ رسول اللّه ﷺ بأنَّ كلَّ بدعة ضلالة لما ينشأ عنها من المفاسد الخارجية، وإن كانت في ذاتها حسنة، وحضَّ الأمَّة علىٰ لزوم الجماعة والتمسك بسنَّته وسنة خلفائه وقال: (من أحدث في أمرنا هذا ماليس منه فهو رد)(٣). أي مردود عليه. ومن المعلوم المتقرَّر عند أهل الأصول

---

(١) انظر نونية ابن القيم ص ٧٩ ـ ٨١.

(٢) أخرجه أبوداود في سننه ٤/ ٢٠١ والترمذي في سننه ٥/ ٤٤ وقال: حديث حسن صحيح والإمام أحمد في مسنده ٤/ ١٢٦ وابن ماجه في السنن ١/ ١٥.

(٣) متفق عليه، انظر اللؤلؤ والمرجان ص ٤٣١.

وعلماء المعقول أن لفظة (كل) من أعظم أدوات العموم شمولاً، ولا ينبغي أن يُتأوَّل معها شيء بعد حديث: (كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة). ومن أين يتطرق إليها التَّخصيص، وقد أخبر عليه الصَّلاة والسَّلام أن أهل البدع (تتجارىٰ بهم الأهواء كما يتجارىٰ الكلب بصاحبه)(١)، وقال ﷺ: (وما ابتدع قوم بدعة إلاَّ أضاعوا مثلها من السُّنَّة)(٢) أو كما قال. وقال أيضاً (ما ضلَّ قوم بعد هدىٰ كانوا عليه إلاَّ أوتوا الجدل)(٣)، ولايعني أنَّ حرف (ما) من أدوات الشرط المفيدة للعموم أيضاً.

وفي الحقيقة إنَّ جميع المحدثات لايصدق عليها إلاَّ أنَّها زيادة في الدِّين من انتحال المبطلين، أو تأويل الجاهلين. ويخشىٰ علىٰ كل محدث بدعة، أو مسوغ لها من سوء

---

(١) أخرجه أبوداود في سننه ٤/ ١٩٨ والإمام أحمد في المسند ٤/ ١٠٢.

(٢) أخرجه الإمام أحمد في المسند ٤/ ١٠٥ وانظر آثاراً عن السلف بهذا المعنىٰ في كتاب (السنة) للخلال ص ٥٤٧ والشرح والإبانة لابن بطة ص ١٣١.

(٣) أخرجه الترمذي في سننه وقال: حسن صحيح ٥/ ٣٧٨ وابن ماجه في السنن ١/ ٤٨ والإمام أحمد في المسند ٥/ ٢٥٢.

المصير، قال ابن الماجشون : سمعت مالكاً يقول : (من ابتدع في الإسلام بدعة يراها حسنة، فقد زعم أنَّ محمّداً ﷺ خان الرِّسالة لأن اللّه يقول : ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ . فما لم يكن يومئذ ديناً لا يكون اليوم ديناً)(١) .

إن المبتدع معاند للشَّرع ومشاق له؛ لأن الشَّارع قد عيَّن لمطالب العبد طرقاً خاصّة من وجوه خاصّة، وقصر الخلق عليها بالأمر والنهي والوعد والوعيد، وأخبر أنَّ الخير فيها، وأن الشَّر في تعديها، فالمبتدع راد لهذا كله؛ لأنَّه يزعم أنَّ ماحصره الشّارع ليس بمحصور ولاما عيَّنه بمتعيّن ، فهو مستدرك على الشارع ويلزم من ابتداعه اعتقاد أن ما جاء به محمد ﷺ غير كاف يستوجب الزِّيادة. وهذا قول بلسان حاله، فإنْ كان بلسان مقاله فقد كفر والعياذ باللّه ،

---

(١) انظر الاعتصام للشاطبي ١/ ٤٩ . وانظر بعض الآثار في هذا كتاب (السنة) لابن أبي عاصم ١/ ٢٣ و(البدع) لابن وضاح ص٣٩ فما بعدها . وآية ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ من سورة المائدة: الآية: ٣ .

وابن الماجشون هو: عبدالملك بن عبدالعزيز بن عبدالعزيز بن عبدالله الماجشون التيمي مولاهم المدني المالكي. تلميذ الإمام مالك بن أنس. فقيه عالم فقه فصيح اللسان كان مفتي المدينة في زمنه توفي سنة (٢١٣)هـ. انظر ترجمته في سير إعلام النبلاء للذهبي ١٠/ ٣٥٩ .

ولكنه لايشعر بمآل بدعته في غالب الأحوال بل تستولي علىٰ قلبه البدع وتعمي بصيرته .

وقد أجمع السَّلف ومن يعتد به من علماء الخلف أنَّ النَّبي ﷺ لم يمت حتىٰ أتىٰ ببيان جميع مايُحتاج إليه في أمر الدّين والدّنيا ، فالمبتدع المحدث في الدين زيادة علىٰ ما كان يُفعل في عصر النّبي ﷺ وأصحابه من أي شرع دقَّ أو جلَّ حتىٰ في الأذكار والأذان ، فضلاً عن الاعتقادات والأعمال الظاهرة والباطنة ، هذا المبتدع المحدث لأي شيء في ذلك يلزمه ما تقدَّم ؛ لأنه محدث زيادة في الإسلام ، وكأنَّه ناقص لم يكمله اللّه تعالىٰ علىٰ لسان رسوله ﷺ . وإذا استساغ إحداث زيادة فقد استساغ إحداث نقص ، حيث أن هذا يستلزم هذا ، ولايليق بحكمة الرّحمن أن يكل الخلق في التشَّريع إلىٰ العقول التي من شأنها الاضطراب والتناقض ، لأنَّها كثيرة الاختلاف تحكم علىٰ الشيء الواحد في السَّاعة الواحدة بعدة أحكام .

ولو جوزنا علىٰ اللّه أن يفوِّض الدِّين إلىٰ استحسان المحدثين بعقولهم ، لجوزنا عليه أن يفوض حكم شريعة

كاملة إلىٰ استحسان العقول، وهذا فاسد بالوضع، لأن تصّرف المخلوقين بالشَّرائع مغير لها لا محالة، وبهذا فسدت كتب الأديان السَّالفة، وحُرِّفت وأُدخل فيها ما أُدخل.

ولو كان في الشَّرع بدعة حسنة كما يزعمون، لجاء بها نبأ عن الشَّارع كيما يهتدي المكلفون، ولكن رحمة الشَّارع وحكمته تأبىٰ أن يهمل باباً من الدّين عظيماً لايذكر فيه شيئاً مع شدَّة الحاجة إليه، بل يأتينا بضدِّه ويقول: (كلّ محدثة بدعة وكلُّ بدعة ضلالة)[1]، ويقول: (من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو ردّ)[2]. أي من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو ردّ. فلو قلنا بالبدعة الحسنة لنسبنا رسول اللّه ﷺ إلىٰ ما لا يليق بجنابه الكريم، فالدّين كامل، والزِّيادة في الكامل نقصان، ولايعقل أن يفوت الرّسول ﷺ عملُ برّ ويجوِّزه من سواه، والإجماع قائم علىٰ أنَّ العمل ما لم يعمله الرَّسول مذموم، وإن قيل: إنَّه حسن. وهذا متيقَّن عند السَّلف لمن نظر في مؤلفاتهم وتراجمهم. ومن المعلوم

(١ ـ ٢) سبق تخريجها.

بالبديهة شناعة الإتيان بما لم يأت به الرّسول من أمر الدِّين، لكل مؤمن به، مصدّق أنه الوسيط بين اللّه وبين عباده. والاختلاف معيب بكل لسان، والابتداع محقِّق له ومعين عليه فهو معيب ممنوع، ومنذ مُني الإسلام بالمحدثات وأهله في انحطاط شديد، وتدهور مستمر في الدِّين والدّنيا، وفي السِّياسة والاقتصاد، وفي الأخلاق والنفوس.

فعلى علماء المسلمين عامة، وعلماء مصر خاصة، أن ينابذوا البدع وأهلها، وأن يحرصوا على إصلاح المجتمع باطراح البدع وقمعها؛ إذ هي أساس التّفرُّق والتّنافر والتقاطع والتّدابر الذي ابتلي المسلمون به منذ قرون عديدة، عسى أن يكونوا لمذهب السَّلف الصَّالح مجدِّدين، ولسنُّة خير الخلف ناصرين، وعسى أولئك أن يكونوا من المفلحين.

الفائدة الثانية: بها ردّ العجز على الصّدر، حيث أن المقصود من هذه العجالة ليس الرَّد على أحد من علماء المسلمين، ولا الخدش في مناصبهم، وإنما هو المناقشة في

إظهار الحقِّ، والحرص على نشر القرآن، وإيجاد محبَّته في القلوب، وعدم تأثُّم قارئه إذا كان ليس ماهراً، فيسبب من ذلك هجره، وأن تكون قلوب المسلمين منيرة بقراءته، معمورة من الاستلذاذ بحلاوته، وتكون فيهم القابلية لتحسين الصَّوت والتَّعبير الجيِّد بواسطة التَّكرار، والفهم القوي، والألفاظ والخشوع والتَّدبر، والاستضاءة بأنواره التي تستوجب العمل بما فيه، وأن يعرفوا مكانتهم بين الأمم، وما فضّلهم اللّه به وشرَّفهم من اختصاصهم بالأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، الّذي لولاه لما جعلهم خير أمَّة أخرجت للناس، عساهم يتدبَّرون ذلك، فينهضوا لإصلاح مجتمعهم. وعند ذلك نؤوب إلى رشدنا، ونرجع إلى سالف مجدنا. لا أن يألفوا البدع، ويعمِّروا المحدثات، فيرجعوا القهقرى باستمرار. وقد قال ﷺ: (مثل المؤمن الذي يقرأ القرآن كمثل الأترجَّة، ريحها طيب وطعمها طيب، ومثل المؤمن الّذي لايقرأ القرآن مثل التمرة، لاريح لها وطعمها حلو، ومثل المنافق الذي يقرأ القرآن مثل

الريحانة، ريحها طيب وطعمها مر . .)(١)، فهذا تمثيل النّبي ﷺ لقارئ القرآن.

وقد حذَّر من إهماله وتوعَّد من نسي شيئاً منه، فقال: (تعاهدوا القرآن؛ فوالذي نفسي بيده إنه أشدّ تفلُّتاً من الإبل في عقلها)(٢). وقال: (مامن عبد يؤتى شيئاً من القرآن فينساه إلاَّ لقي اللّه وهو أجذم)(٣) وقال ﷺ: (اقرؤوا القرآن فإنَّه يأتي يوم القيامة شفيعاً لأصحابه)(٤). وقال: (من قرأ القرآن، فله بكل حرف حسنة والحسنة بعشر أمثالها، لاأقول «ألم» حرف، ولكن ألف حرف ولام حرف وميم حرف)(٥). وقال ﷺ: (إنَّ هذا القرآن حبل اللّه المتين، والنور المبين، والشِّفاء النافع، عصمة لمن تمسَّك به، ونجاة لمن اتَّبعه، لا يزيغ فيستعتب، ولايعوج فيقدَّم، ولاتنقضي عجائبه، ولايخلق من كثرة الترداد. أتلوه، فإنَّ اللّه

---

(١) متفق عليه. انظر اللؤلؤ والمرجان ص ١٥٤.

(٢) متفق عليه. انظر المصدر السابق ص ١٥١.

(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ٥/ ٢٨٤ وأبوداود في سننه ٢/ ٦٥٠ والدارمي في سننه ٢/ ٤٣٢.

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه ١/ ٥٢٣.

(٥) أخرجه الترمذي في سننه ٥/ ١٧٥ والدارمي في سننه ٢/ ٤٢٩.

يأجركم علىٰ تلاوته ، كل حرف عشر حسنات ، أما إنّي لا أقول «ألم» حرف ، ولكن ألف حرف ، ولام حرف ، وميم حرف)(١) .

وحثَّ ﷺ علىٰ عمارة المساجد بتلاوة القرآن ، فقال (ما اجتمع قوم في بيت من بيوت اللّه يتلون كتاب اللّه ويتدارسونه بينهم إلاَّ نزلت عليهم الملائكة ، وغشيتهم الرَّحمة ، وحفَّتهم الملائكة ، وذكرهم اللّه فيمن عنده)(٢) .

ولم يُنط اللّه ورسوله هذه الأجور الجزيلة ، والكرامات الجليلة بمهارتهم في القراءة أو التزامهم شيئاً من أحكام التَّجويد المصطنع ، لما في ذلك من الإصر والإحراج ، والتفسير ، بل قال مايخالف ذلك ، حيث أنَّه خرج علىٰ أصحابه وهم يقرؤون القرآن ، ومنهم العربي والعجمي ،

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه ٥/ ١٧٢ عن علي بن أبي طالب . والدارمي ٢/ ٤٣١ عن عبدالله ابن مسعود . وحديث علي بن أبي طالب لم يصح سنده لأن فيه الحارث الأعور : كذاب رافضي . وفيه إبراهيم الهجري قال فيه الحافظ ابن حجر في التقريب : (لين الحديث يرفع الموقوفات) . أما حديث ابن مسعود عند الدارمي ، فالصواب وقفه عليه . ومعلوم أن موقوفات الصحابة لها حكم الرفع .

(٢) أخرجه أبوداود في سننه ٢/ ٧١ وابن ماجه في سننه ١/ ٨٢ والإمام أحمد في مسنده ٣/ ٩٤ .

فقال: (اقرؤوا كل حسن). كما في حديث أنس المتقدم، وقال: (الماهر بالقرآن مع السَّفرة الكرام البررة، والذي يقرأ القرآن ويتتعتع فيه، وهو عليه شاق، له أجران). وقال ﷺ: (من قرأ القرآن فأعربه فله بكلِّ حرف عشر حسنات، ومن قرأه ولحن فيه فله بكلِّ حرف حسنة)(١).

وهذه أحاديث اتّفق على تخريجها أصحاب السنن والمسانيد، وتلقتها الأمة بالقبول، ودلَّت الشَّواهد على صحتها، وهي نصوص قاطعة، لا تقبل التأويل بوجه ما، ومنطوقها يهدم ما أصَّله علماء التجويد، الذي راجت أقوالهم على من كان جامداً في حضيض التقليد، وقال ﷺ: (.. والفاجر يتأكّل به)(٢). وقال: (إنّ من أشراط السّاعة أن يُتَّخذ القرآن مزامير يقوم الرّجل القوم ليس بأعلمهم، ولا أفقههم، إلاَّ ليفتيهم)(٣). وقال صلوات اللّه وسلامه عليه: (من إكفاء الدين تفصح

---

(١) هذه الأحاديث الثلاثة سبق تخريجها.

(٢) أخرجه البخاري في جامعه تعليقاً انظره مع الفتح ٩/ ٩٩ والإمام أحمد في المسند ٣/ ٨٣.

(٣) أخرجه الإمام أحمد في المسند ٣/ ٤٩٤ والطبراني في معجمه الكبير ١٢/ ٣٤ والبخاري في التاريخ ٧/ ٨٠.

النبط)[١]. بكسر الهمزة، وقال عليه الصّلاة والسَّلام: (من قرأ حرفاً من كتاب اللّه فله به حسنة). وقال: (إني لأعلم سورة من القرآن قدر ثلاثين آية تجادل عن قارئها حتىٰ تشفع له وهي سورة الملك)[٢]. أو كما قال ﷺ. وقال: (من قرأ القرآن يتأكّل به النَّاس جاء يوم القيامة، ووجهه عظم، ليس به لحم)[٣]. وهذا لأنَّه جعل القرآن وسيلة إلىٰ حكام الدنيا، فكان يوم القيامة علىٰ أقبح صورة، حيث عكس وجعل أشرف الأشياء وأعزَّها وسيلة إلىٰ أرذل الأشياء وأحقرها، وهذا هو ديدن كثير من قرَّاء التجويد اليوم.

وجميع الأحاديث المرويَّة عن سيد الكونين[٤]، ليس فيها ماينصُّ أو يدل بأيّة حالة علىٰ شيء من أحكام التجويد

---

[١] لم أجده فيما اطلعت عليه بعد طول بحث وتحر.

[٢] أخرجه الترمذي في سننه ٥/ ١٦٤ وأبوداود في السنن. انظره مع عون المعبود ٤/ ٢٧٧ والدارمي في مسنده ٢/ ٤٥٦ والإمام أحمد في مسنده ٤/ ٢١٢ والحاكم في مستدركه ١/ ٥٦٥ ووافقه الذهبي.

[٣] أخرجه البيهقي في شعب الإيمان ٥/ ٥١٠ وابن أبي شيبة في المصنف ١٠/ ٤٧٩ وأبونعيم في الحلية ٤/ ١٩٩. وابن أبي شيبه وأبونعيم روياه موقوفاً وهو الصحيح إن شاء الله.

[٤] هكذا في الأصل، ولعل الصواب أن يقال: سيد الخلق. ومراد المؤلف: سيدهم في الدنيا والآخرة.

الذي أوجبه على النَّاس محدثوه، وإنما بعضها يحثّ على قراءة القرآن على الإطلاق دون تَقَيُّد بشيء منها، وبعضها ينصّ على خلافه، ويحض الأمة على القراءة حسب ما استطاعوا دون تكليفهم بالتزامه، أو تعلمه، وبعضها ينصّ على ذمِّ أولئك الملتزمين له، لما ينشأ عنه في الخارج من المحدثات والتأكل وغير ذلك.

ومارواه علماء التَّجويد عن علي رضي اللّه عنه في معنى الترتيل (أنَّه معرفة الوقوف وتجويد الحروف)، فهو مردود من وجهين:

أولاً: إنه حديث منقطع (١) لا يصح الاستدلال به، كما هو مقرر عند أهل الأصول.

وأيضاً فلو كان موصولاً إليه فليس حجَّة، حيث لم يبعث اللّه لهذه الأمة حجَّة غير نبيِّها، ولم يلزمهم باتِّباع سواه أيّاً كان، ومع هذا فصيغة لفظه لا تدل على ما أصّلوه في هذا الفن، وقد تقرَّر عند الأصوليين أن قول الصحابي

---

(١) بل لايعرف له إسناد البته. انظر النشر ١/ ٢٠٩، ٢٢٥، والتمهيد في علم التجويد ص٦٠ وتنبيه الغافلين ص١٢١ ولطائف الإشارات ١/ ٢٢٠، ٢٤٩. ولم أجد من ذكره عن علي بن أبي طالب قبل ابن الجزري ثم تناقله المؤلفون عنه.

مذهب له فقط، ولايكون حجَّة حتى يجمع عليه.

وكذلك نقول في ماروَوَهْ عن ابن مسعود من ذلك، وعلى فرض صحّة المنقول عنهم، فإنّما هو في الوقف والابتداء، ولايصدق على غيره مما أصَّلوه في سائر القوانين في ذلك الفن المخترع، الّذي ليس معدوداً من العلم الشَّرعي، وقد قال السَّادة الحنابلة في أبواب الوقف: لو وقف رجل وقفاً على طلبة العلم أو كتبه، لم يدخل في هذا الوقف طلاب فنون الكلام كالنّحو والصّرف والتجويد والحساب والطبّ والتعبير والمنطق، وما أشبه ذلك، وكذا الحكم في الوصيَّة.

وقد زادت المحدثات في هذا الفن، حتى امتزج بالغناء، ولاسيما في هذا العصر، الّذي كثرت فيه أبواق الإذاعة من أمواج الأثير، كما أخبر به النّبي ﷺ: (إنَّ من أشراط السَّاعة أن يتخذ القرآن مزامير)(١)، وقد شابهت محافل القراءة محافل الغناء، فكان شعارها المكاء والتَّصدية وارتفاع الأصوات.

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه ٤/ ٤٩٤ وانظر: اقتضاء الصراط المستقيم ص ١٦٨.

هذا وقد نصّ العلماء على أن القراءة بالألحان، حيث خلت من التَّمطيط وإبدال الحركات حروفاً، هي محلّ الخلاف، والمذهب كراهتها. وأمّا إذا لم تخل من ذلك بأن بدلت حركات اللّفظ أحرفاً بالمدّ والتمطيط، فتولّد من الفتحة ألفاً، ومن الضمة واواً، ومن الكسرة ياء، أو جعلت الألف ألفين، والواو واوين، والياء يائين، فهذا محرّم بلا خلاف، وشدّد في النَّهي عنه لأنَّه زيادة أحرف في القرآن الكريم. قال الإمام أحمد: (قراءة الألحان بدعة فإن حصل معها تغيير نظم القرآن، وجعل الحركات حروفاً حرّم)(١). وجمهور العلماء حرَّم أيضاً التمطيط المتكلَّف المشتمل على التعسُّف والتشدق، وتلوق الفم، قالوا: وإن لم يتولَّد في ذلك حروف، فهو مكروه، لإخراج القراءة عن العادة المستمرة، والقانون العربي إلىٰ التعويج والتشدّق، وقد قال تعالىٰ: ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ﴾(٢).

والربُّ تبارك وتعالىٰ لم يأمر نبيّه بقراءة غير القرآن، بدلاً عن القرآن كما هو واضح مشهور. وكذلك النّبي ﷺ

---

(١) انظر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. لأبي بكر الخلال ص١٧١.

(٢) سورة الزمر: الآية: ٢٣.

لم يأْمر أمته بالاستغناء عن القرآن بأي شيء من الأذكار، في أي حالة من حالات القارئ، ولم يقيِّد القراءة بشيء مما أحدثه أهل التجويد، ولم يأمر أيضاً أصحابه بالإنصات لقارئ واحد ويقصرهم عليه، ولا أن يردِّد الرَّجل الآية علىٰ عدة قراءات. بل ولم تتواتر القراءات عن النّبي ﷺ إلىٰ الأئمة السَّبعة كما يزعمون، وإنما تواترها فقط عن الأئمة السّبعة فقط، كما هو مقرر في كتب الأصول، حتّىٰ قال الطوفي: (وأبلغ من هذا أنَّها لم تتواتر بين الصَّحابة)(١).

ولا نطيل بسرد الأحاديث الواردة في قراءة القرآن علىٰ الألحان. علىٰ أننا ذكرنا طرفاً صالحاً منها، وما فات لعله أكثر، ويكفي في ردّ جميع ماقالوه (المنع) فضلاً عن أدلة العقل والسّمع، وبما ذكرناه مقنع وكفاية، لمن كان له قلب أو ألقىٰ السَّمع وهو شهيد.

---

(١) تتمة كلام الطوفي: (واعلم أن بعض من لا تحقيق عنده ينفر من القول بعدم تواتر القراءات (يعني السبع) ظناً منه أن ذلك يستلزم عدم تواتر القرآن وليس ذلك بلازم. . لأن القرآن والقراءات حقيقتان متغايرتان) انظر الروضة ٢/ ٢١، ٢٢. وانظر شرح مختصر ابن الحاجب ١/ ٤٦٩. والمرشد الوجيز ص١٧٤. وحاشية العطار علىٰ جمع الجوامع ٢/ ٢٩٨ وحاشية البناني أيضاً ص١٣١.

إنَّ العابد(١) للّه حقاً لايتجاور نصوص الوحيين من كتاب اللّه وسنَّة رسوله ﷺ، معتقداً كفايتها في كلِّ شيء، مستيقناً أنَّ ربَّه سبحانه ليس نسيَّاً، وأنَّه لايعزُب عن علمه شيء في السموات ولا في الأرض، وأنَّ علمه محيط بالسَّابق واللاَّحق، وأنَّ أحكامه وتشريعاته كافية، مغنية لحلِّ جميع المشاكل في كلِّ عصر، وأنَّ ما يجري مما يسمِّيه أعداء اللّه تطوراً، إنَّما هو زيغ وضلال وتهتك وانحلال، وأنَّ التطور الصَّحيح يجب أن يمشي وفق ما شرَّعه اللّه، فإذا خالفه فليس تطوُّراً، بل هو رجوع إلى الجاهليّة، وهمجية جديدة، وإن ظهر بألوان وأسماء مخترعة شتَّى للدَّجل والتّضليل، فإنَّ خبثاء القصد والعمل قد بهرجوا جاهليتهم بطلاء العلم والمعرفة والحضارة والمدنيَّة، ليسوغوا تسميته تطوراً، والعلم الصَّحيح والمعرفة والحق على خلاف مايريدون، لأنَّهما يدلان إلى اللّه، ويخضعان صاحبهما لحكمه، فالعابد للّه، المتصوِّر لمقصوده من إرسال الرُّسل،

---

(١) من هنا إلى نهاية الرسالة منقول حرفياً من تفسير المؤلف لسورة الفاتحة وهي الفائدة (١٤٩) منها انظر التفسير ١/ ١٢٨ـ ١٣٢.

يعرف أنَّ الجاهليّة ليست صورة معيَّنة لفترات تاريخيَّة قد مضت وانتهت بلا رجعة، وليست مقابل مايسمَّىٰ بالعلم والمعارف والرّقي والحضارة، لأنها لو كانت كذلك من هذا النّوع أو ذاك، لفنَّدها القرآن، وعاب أهلها بعدم معرفتهم العلوم والفنون الماديَّة والنُّظم الإداريَّة أو السِّياسية، وأوضحها لهم ليخرجوا بها من جاهليتهم إلىٰ طور جديد، فأعطاهم البديل من الجهل المادي بعلم الكيمياء والفلك والرِّياضيات والطبيعة والجيولوجيا وغيرها، وأعطاهم البديل من الجهل السِّياسي بالنَّظريّات السِّياسية المختلفة في المكر والخديعة، ولكن جاهليتهم ليست من عدم علمهم بهذه الأشياء وممارستهم لها، فعندهم علوم ماديّة ورياضيّة علىٰ حسب متطلبات بيئتهم وزمانهم، وعندهم من فنون القوّة والجمال شيء لم يبلغ بعضه من عندهم، كما قال اللّه تعالىٰ في الآية التاسعة من سورة الرومّ(١)، والآية (٦٩)

---

(١) وهي قوله تعالىٰ: ﴿أَوَ لَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾.

من سورة التَّوبة(١)، والآية (٢١) من سورة المؤمنين(٢)، وغيرها، وعندهم من أساليب المكر السِّياسي مايلائم أحوالهم، مما يماثل المكر المعاصر أو يزيد.

وإنِّما جل جاهليتهم مبنية على اتِّباع الهوى والشَّهوات، وتقليد الآباء، ومسايرة النَّاس بغير هدى من اللّه، بل على أساس رفض وحي اللّه، ومحاربة رسله وأتباعهم، وإعلان بغضهم والتّنفير عنهم، وتمجيد الاعتماد على النَّفس وانطلاقها في التصورات والأفعال دون وازع سوى حكم الطاغوت أو القوَّة الماديّة.

هذه حقيقة الجاهلية الأولى المعادية لرسل اللَّه، سواء كانت جاهلية عربيَّة أو رومانية أو يونانية، أو فرعونية، أو

---

(١) وهي قوله تعالى: ﴿كَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالاً وَأَوْلادًا فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلاقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُم بِخَلاقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلاقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا أُوْلَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾.

(٢) وهما الآيتان من سورة المؤمنين: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ. وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾.

فارسية ، أو هندية، أو صينية، فلا عبرة بالأسماء ولا بالانتساب، إنما العبرة بالحالة النَّفسية التي تأبىٰ الانقياد لأمر اللّه والانصياع لحكمه، اتِّباعاً للهوىٰ، ورغبة في الأنانية والنُّفوذ المطلق بأي صورة ظهرت .

وبهذا التعريف الظاهر المنضبط الصَّحيح يتضح لعبداللّه أنَّ لكلِّ قوم في كلّ زمان جاهليَّة ، فيحذرها ويفرّ منها إلىٰ اللّه بالاستمساك بوحيه والاستغناء به، والرجوع إليه في كلِّ ورد وصدر، واعتقاداً أنَّ جميع المظاهر والتصورات والأعمال المخالفة له جاهلية ورجس من مبتكرات الطواغيت المختلفة، ويدرك الأغوار البعيدة والمقاصد الخبيثة لما يطنطن به الملحدون والمغفلون من كلمات الحريَّة والحضارة والمدنيَّة التي هي من شعارات الماسونية البارزة في الثَّورة الفرنسيَّة وألاعيبها في السَّلطنة التركية، تلك الأمور التي كانت من ثمراتها الحنظليَّة تمركز اليهوديَّة العالمية وأذنابها في كثير من المراكز الحسَّاسة في أغلب الدول المتَّصفة بالجاهليَّة الحديثة . سواء ادعت العروبة أو الإسلام، أو المتَّصفة أو غيرها من الألقاب المبهرجة، كما

كان من ثمراتها فصل الدِّين عن الدَّولة، بل إقصاؤه عن جميع واقعيات الحياة ومناصبته العداء، واستغلالها⁽¹⁾ فسمىٰ (الحرية) لجميع أنواع الإلحاد والعهارة التي تهزّ القيم الدِّينية والأخلاق النَّبوية والأعراف المنبثقة عنهما، والتَّجاهر بتسفيه أهلها وتشكيك النَّاس فيهما، وإطلاق العنان للشَّهوات البهيمية تحت رعاية دولهم، مما يجعل هذه الدَّول علىٰ غاية من (الدّياثة) لإقرارها السوء في أعراض أهاليها وتشجيعهم علىٰ ذلك، ويعملون بجد ونشاط علىٰ جعل الإنسان يعبد نفسه بخدمتها، والسَّير وراء متطلباتها دون الالتفات إلىٰ أمر اللَّه، جعل⁽²⁾ الإنسان يعبد إنساناً مثله باسم المبدأ أو الفلسفة للمبدأ أو الزّعامة فيه، وإعطائه قداسة الألوهيَّة بتعظيم صورته وعرض تماثيله علىٰ الجماهير، والانحناء له حياً وميتاً في قبره، بل يعملون عبادة الشَّخص لفئة خاصَّة أو لوطنه، كما هو معروف ومعمول به في مناهج القوميات التي قلبوا فيها دين

---

(١) أين الناس أو القوم الذين مر ذكرهم في السياق.

(٢) هكذا في الأصل ولعل الصواب: فجعل بالبناء المجهول.

الحقّ، دين(١) لعدد بمختلف الغايات والأصنام النَّاطقة والاتجاه إليها، مما جعلهم في أحطِّ أنواع الجاهليّة، واعتقادهم في سوء التأثير والإصرار بسبب عمق التَّضليل، وقوّة الدَّجل، واللَّعب بالعواطف، واستغلال العلم المادي وسائر الفنون في هذا السَّبيل، بحيث قال شاعرهم:

لا ربَّ إلاَّ الشعب جل جلاله
فلهُ العبادة لا شريك له ينوب

وقال الشاعر الوثني الآخر:

انطلق في ضحاها ومساها
يا أخي قد أصبح الشَّعب إلها

مع أنَّ الشَّعب الّذي يتغنى المغرضون باسمه ويأخذون كل شيء باسمه، ويحاكمون ويقتلون ما شاؤوا باسمه، ليس له من أمره مثقال ذرَّة، بل يسوقه الحكم العسكري الغاشم إلى ما يريد، ويحركه تحريك الآلة، بحيث تكون الأنعام أحسن منه حالة، وتمثل هذه الأعمال بالأعمال ما

---

(١) هكذا في الأصل ولعل الصواب: فصار دينهم يتعدد إلخ..

هي إلاَّ عقوبة من اللّه، يجريها علىٰ من تنكّب عن عبادته، فيبتليه بعبادة من لايرحمه ولايقبل منه معذرة ولاتسويفاً.

ومنشأ هذه الأصول التي يتردَّىٰ بها الإِنسان هو الانتقاص من كفاية وحي اللّه وعدم الاستغناء به والانشغال بتدبره، فتحصل الرَّغبة في غيره، أو يطلب المزيد من غيره لحل المشاكل، فتتلطخ الأدمغة وتفسد التصورات، وبفسادها يحصل الانحراف، وينقلب الاتجاه بانقلاب المفاهيم، حتىٰ إنَّ الذين ابتلوا بالنَّظريات العصرية والمذاهب الثّورية يرفضون الأخلاق والفضيلة، ويزورون ما يسمىٰ (الحق). أفلا يوجد عندهم ميزان صحيح للحقِّ والفضيلة؟ كأن الحقّ والقيم الخلقية ليست إلاَّ أشياء نسبية اقتصرت شرعيتها وفائدتها علىٰ زمان أو مكان خاص أو بيئة مخصوصة، وقد لقبوا المجتمعات المؤسسة علىٰ الدّين والأخلاق النَّبوية بالجمود والتزمت والتَّأخر، وعملوا علىٰ القضاء عليها باسم العلم والفنون والتَّصنيع والتَّجميل، كأنَّ ذلك لايتمّ إلاَّ علىٰ حسابها، وصدق معنىٰ الحديث المروي عن علي (رضي الله عنه) عن الرّسول ﷺ أنَّه قال:

(إنَّها ستكون فتنة. قلت: ما المخرج منها يارسول اللّه؟ قال: كتاب اللّه؛ فيه نبأ ما قبلكم وخبر ما بعدكم وحكم ما بينكم، هو الفصل ليس بالهزل، من تركه من جبَّار قصمه اللّه، ومن ابتغىٰ الهدىٰ من غيره أضلَّه اللَّه، وهو حبل اللّه المتين، وهو الذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم، هو الّذي من لا تزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الألسنة، ولايشبع منه العلماء، ولايخلق من كثرة الترداد، ولاتنقضي عجائبه، هو الَّذي لم تنته الجنُّ إذ سمعته حتىٰ قالوا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا . يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ﴾ من قال به صدق، ومن عمل به أجر، ومن حكم به عدل، ومن دعا إليه هدي إلىٰ صراط مستقيم)(١).

فكل ماحدث ومايحدث من النَّظريات والفتن والفساد وأنواع المحن سببه الانحراف عن تحقيق العبوديّة لله، والانصراف عن وحيه زهداً فيه وانتقاصاً له إلىٰ غيره من العلوم المادية والنَّظريات الماسونية اليهوديَّة المتنوِّعة، وهداية

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه ٥/ ١٧٢ وقال إسناده مجهول وفي الحارث مقال. وأخرجه الدارمي في مسنده ٢/ ٤٣١.

اللّه النَّافعة في كل ميدان، والدَّالة علىٰ عبوديَّته وطريق مرضاته، والمحققة للوحدة والأمن الصَّحيح والعيشة الرَّاضية في الدارين لا تحصل إلاَّ عن طريق الوحيين: كتابه وسنَّة رسوله عليه الصَّلاة والسَّلام. فالمنحرف عنها والمنصرف إلىٰ غيرها مبتعد عن عبودية اللّه وهدايته، ونيل وعده الصَّادق. ورویٰ الإمام أحمد والنّسائي والدارمي عن ابن مسعود رضي اللّه عنه قال: خط رسول اللّه ﷺ خطاً، ثم قال: (هذا سبيل اللّه)، ثم خط خطوطاً عن يمينه وعن شماله، وقال: (هذه سبل، علىٰ كلِّ سبيل منها شيطان يدعو إليه)، وقرأ: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾(١).

ولا يحصل الاستغناء بالوحيين، وتحقيق اعتقاد كفايتهما إلاَّ بالإقبال التَّام عليهما، وبذل الجهد في معرفة معانيهما، وحصر التَّلقي لجميع أنواع الهداية منهما، وحصر معالجة المشاكل فيهما، والتَّصميم الجازم علىٰ دفع

---

(١) سورة الأنعام. الآية: ١٥٣. وانظر الحديث في مسند أحمد ٣/ ٣٩٧ و٤/ ١٨٢ والسنن الكبرىٰ للنسائي ٦/ ٣٤٣. والترمذي في سننه ٥/ ١٤٤. ولم أجده في سنن الدارمي ولعل المؤلف أراد الترمذي.

كل ما عارضهما، مع اعتقاد فساده واعتقاد ظهور ما خفي من فساد، عاجلاً أو آجلاً، فيرفض كل مذهب أو نظرية أو علم يخالفهما من أيِّ مصدر كانت، وبذلك تكتمل عبوديته للّه ويصدق في ضراعته للّه، بسؤاله الهداية إلىٰ الصِّراط المستقيم.

والعابد للّه لا يقرأ القرآن لأجل المزيد من المعلومات فقط، ولا لأجل تحصيل الثَّواب الموعود به علىٰ كل حرف، فيشرع في قراءته أو يكررها دون تفهم وخشوع، ودون تصميم علىٰ التنفيذ لأوامر اللّه فيه بكل قوّة وتحمس، ولا تكون قراءته بقصد الاستمتاع بفصاحته، أو التَّذوُّق من بلاغته، شأن المائقين المتحذلقين من ذوي الابتعاد والشكوك في الماضي والحاضر، بل يقرأ القرآن لأجل أن يتلقىٰ كلام رب العالمين، كلام الملك العلام، مالك الملك، المختص بالفضل يوم القيامة، اليوم الّذي لا ينجو فيه إلاَّ العاملون بالقرآن.

فعبودية اللّه تستلزم من عبده الصَّادق أن يقرأ ذلك الكتاب كقراءة الجندي والموظف الذي يقرأ كتاب رئيسه

ليعمل بمقتضاه وينفذ وصاياه، متشرِّقاً به، إن كان مخلصاً، فعبد إليه المخلص له، الصَّادق معه، يتشرَّف بقراءة كتابه العزيز ووحيه الثّاني المفسّر له من سنَّة نبيِّه ﷺ، ويفرح بهما أعظم فرحة، ويتلقاهما كتلقّي الجندي في الميدان لتوصيات رئيسه، معرضاً عما سواهما، لايرفع به رأْساً، وبذلك تحصل الطواعية للّه ولرسوله، وتنحصر صلة العبد بهما، وينفصل عمَّا عداهما انفصالاً كاملاً، عن شعور إيماني عميق، منبثق من محبَّة اللَّه ورسوله ﷺ ومنابذة ماعداها فراراً من الإِثم، والتزاماً لقواعد المحبة وضوابطهما.

وإذا قرأ عباد اللّه على هذا النَّحو، وتلقّوه بهذه الصُّورة، انفتحت لهم كنوز العلم والمعرفة، وتيسَّر لهم العمل به دون إحساس بأيِّ تكليف، بل يستطيعون العمل للّه، ويتلذَّذون به، ويتنافسون بالتَّضحية في سبيله، ويتسابقون إلى الفداء، لأنَّ ذواتهم تكيّفت بوحي اللّه، الّذي انخنست به قلوبُهم، وتغلغل في شرايينهم، وهناك تتفجر طاقاتهم وتصبح ثقافتهم ثقافة محمَّدية متحركة،

زحَّافة في كلِّ ميدان، وإلىٰ كلّ صقع وواد، لا تقتصر علىٰ ملازمة الكتب أو أعمدة الصُّحف والمجلات، ولا تتحجَّر في الصَّناديق والدواليب، وإنَّما تحرك أهلها ذات اليمين وذات الشمال، حيث أراد اللّه من الزَّحف المقدَّس، الّذي قام به أسلافنا عباد الرّحمن، والّذي لا نزال نسعىٰ في آثاره وبقاياه من الأرض.

هذا نتاج القرآن لمن أقبل عليه بفرح وحب، وتشرق وتشوُّق، وتعاهده حتىٰ ينغرس في قلبه، وينمو في عروقه، ولقد كان السَّلف لايتجاوزون بضع آيات منه حتىٰ يحفظوها ويتدبَّروها، ويقوموا بواجبها من التَّنفيذ، ولم يكن همهم مقصوراً علىٰ الاستكثار من قراءته، كحالنا اليوم في هذا العصر، لشعورهم بعظم المسئولية من الواجبات والتكاليف، حتىٰ حصلت عندهم الملكة علىٰ تحمُّلها بكاملها، ورعايتها حقّ الرِّعاية.

فإنّ هذا القرآن لم يجعله اللّه كتاب قصَّة وفن أو أدب وتاريخ، وإنَّما جعله اللّه ميثاقه العظيم المتين لعباده في الأرض، ليكون منهاجاً لسيرهم في جميع ميادين الحياة

السياسيَّة والثقافيَّة والاقتصاديّة والاجتماعيّة، ومرجعاً وحيداً في سائر ما ينوبهم من ذلك، لا يبقىٰ رمزاً في الخيال مجمَّداً في الذِّهن، أو محجوراً في مكان، أو مقصوراً علىٰ شيء دون شيء، والَّذين يريدون حصره في شيء من ذلك، من المثقفين ثقافة عصرية مادية حسب مخطط أعداء الإسلام، قد سلكوا أقبح مسالك الشرك في تنقيص اللّه وبخسهم لحقِّه وانتزاعهم لسلطانه، وتأْليه أنفسهم من دونه، بجعل الحاكمية لغيره من البشر الّذين يريدون أن تكون لهم الخيرة من أمرهم.

أقول عن هؤلاء المتلبسين بأقبح أنواع الشِّرك وأفظعها: إنهم لايرضون لمواثيقهم وأنظمتهم الّتي دبّروها أن تكون خيالاً في الذِّهن، لا وجود له في الخارج، أو يكون العمل بها مقصوراً علىٰ ناحية دون ناحية، بل يعتبرون هذا ردَّة وخيانة، كما لايجوِّزون لأحد من الشُّعوب المدينة بها أن يخرج عن طاعة واضعيها، أو يختار لنفسه منهجاً يلائمه سواها، فيعتبرونه متمرِّدًا أو عميلاً خائناً ومتآمراً علىٰ سلامة الوطن أو الدولة، إلىٰ غير ذلك من التهم التي

يصبّون عليه بسببها أنواع العقوبات، فقد جعلوا لأنفسهم منزلة أعظم من اللّه، إذ جعلوا لأنفسهم ونظمهم الوضعيَّة كامل الإيمان والسلطة والنُّفوذ في كلِّ شيء دون اللّه، ووحيه العزيز، الذي يزعمون أنَّه في الضمير فقط، باللّه عليكم أي شيء في الضمير لايلهب الحماس، ولايحرك الجوارح؟ هذا خيال لاوجود له.

وهل يقبلون من أحد دعوىٰ الوطنيّة في ضميره، وهو لا يعمل لصالح وطنه، ولاينطق لصالح وطنه؟ أم هل يقبلون من أحد دعوىٰ إيمانه بالقومية في ضميره، وهو يسلك المسالك المخالفة لها في عرفهم العصبي؟ أو يقبلون دعوىٰ الإيمان بالشّيوعيّة وفروعها من الاشتراكيات في الضمير دون التقيد بخططها ومواثيقها الماركسية؟ إذا كانوا لايرضون ذلك، (وطبعاً لايرضونه)، فما قيمة دعواهم أن الدّين في الضمير؟ أو أن العبادة مختصة في المساجد والمعابد؟ أو أنَّ القرآن جاء بشريعة ودين لعصور متخلِّفة؟ أو نحو ذلك من المفتريات الماسونية.

حقاً إنَّ ما في الضَّمير لا بد أن ينطق به اللسان،

وتتحرك به الجوارح والأحاسيس ، فإن حلَّ حب اللّه ورسوله حقاً في الضمير ، كان وحي اللّه من كتاب وسنة غذاءً للقلب ، ومتعة للأحاسيس ، فانشغل اللِّسان بوحي اللّه وذكره ، وتحرَّكت الجوارح إلى طاعته ، وتنفيذ أوامره ، وابتعدت عن موجبات سخطه ، بدافع روحي لا مثيل له ، بحيث أن الإنسان يقدر على التهرب من النُّظم الوضعية ، فيخالفها بشتى الوسائل ، ولكن الوازع الدّيني من خشية اللّه ومراقبته ، والطمع في ثوابه الجزيل ، والخوف من عذابه الأليم المقيم ، يجعله لا يستهين بأوامر اللّه أو يتهرّب عن تنفيذها ، لما حلَّ في ضميره من الحبِّ والمراقبة ، وعلى العكس إذا خلا الضمير من حبِّ اللّه وتعظيمه ، وحلَّ فيه حبُّ غير اللّه أو تعظيم غير اللّه والخوف منه ، انصرف إليه ، واستمال إلى ما يقذفه عليه ، وتحرَّك إلى ما يريده دون مبالاة باللّه ، كما هو المشاهد من حال أكثر أهل هذا العصر .

ثمَّ إنَّا نسأل الذين يحصرون الدِّين في الضمير نقول لهم : هل تسمحون للمسلم الصحيح أن ينطق فيما يمليه ضميره ، ويتحرّك لما يوجهه إليه ضميره المحبّ للّه حقيقة؟

أو تقيِّدونه به من كل ناحية على حسب ما تريدون؟ فأي قيمة لما في ضميره؟ بل أي حرية تتشدقون بها؟

إنَّ المواثيق الماركسَّية والدساتير الوطنية بأي صبغة صبغت لا قيمة لها، إذا كانت خيالاً في الضَّمير، لا يظهر مفعولها ويبرز وجودها في الخارج، ولكن جندت لها جميع القوىٰ الإعلاميّة والثقافيّة والعسكريّة حتىٰ انطبعت بها الأدمغة، وفرضت علىٰ النَّاس، وأبرز باسمها طواغيت شتّىٰ، فرضوا ألوهيتهم ونفوذهم علىٰ البشر، بمختلف أنواع التَّسلُّط، من فكري وعسكري، فما بال الدين يبقىٰ أكذوبة مزعومة في الضَّمير؟ وما بال المسلمين يظلون متسوِّلين عطف غيرهم عليهم؟

إنَّ من أعظم الواجب لتصديق حب اللّه وتحقيق تعظيمه في قلوبهم، الخشوع لذكر اللّه وما نزل من الحقّ، وتدبّر القرآن بكل حبّ وشغف ﴿أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ (١)، والتصميم علىٰ تنفيذ أوامر اللّه والزَّحف برسالته، والسَّعي لإعلاء كلمته في الأرض، أشدَّ مما يسعىٰ

---

(١) سورة محمد الآية: ٢٤.

غيرهم من أهل المبادئ العصبية والمذاهب الماديَّة الوثنية، فمن العار أن يغلبهم أولئك، إنهم لا يحققون عبودية اللّه حتىٰ يرعوا ميثاقه الأعظم، بتنفيذ وصاياه في وحيه وإقامة حكمه، وأن يقوموا للّه قومة الصَّادق المخلص، لا يخشون غيره ولا يراقبون سواه، فكلّ منهم مطالب بتحقيق شعار المسلمين: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (١)، ﴿قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ . لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾(٢).

وكيف يحقق هذا الشعار بدون تدبر القرآن والتزام نصوصه، وتحكيمه فقط علىٰ نفسه وعلىٰ غيره في كلِّ ورد وصدر؟ لا بدَّ من ذلك، وبتحقيقه يجعل البعث الإسلامي من جديد، وتحصل الوقفة الصَّحيحة أمام كلِّ جاهلية، مهما انصبغت بالأسماء والألقاب، ومهما ادّعت لنفسها من العلم الّذي ادَّعاه أسلافها من الجاهلات، إذ يقابل عباد

---

(١) سورة الأنعام: الآية: ٧٩ .

(٢) سورة الأنعام: الآيتان: ١٦٢ ـ ١٦٣ .

اللّه خططهم بما يدفعونها وتزهقها ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ (١).

أما الذي يتبع معهم، أو يؤوِّل النّصوص على وفق أهوائهم أو اكتشافهم، أو يضرب بعضها ببعض، طالباً وراغباً الرَّاحة في حياة بهيمية يذوب بسببها في بوتقتهم، أو يقتصر من كلام اللَّه على مجرَّد التّلاوة، فهذا فيه شعبة أو شعب من النِّفاق، شعر بها أو لم يشعر، وبعضُهم يكون جاهلاً ناقص الإيمان، وبعضهم فيه مشابهة للذين يحرفون الكلم عن مواضعه ونسوا حظاً مما ذكروا به، أو فيه مشابهة للّذين لايعلمون الكتاب إلاَّ أماني، أي مجرد تلاوة، ومنهم من هو سمّاع للقوم الظّالمين، فيه استعداد تام لقبول الكذب.

وجميع أهل هذه الأصناف مذموم عند اللّه كما هو صريح وحيه، فلا يكون من المحققين لعبادته بالعمل الصَّحيح لدينه، وقد روى مسلم في صحيحه عن عمر بن الخطاب أنَّ رسول اللّهﷺ قال: (إن اللّه يرفع بهذا الكتاب

---

(١) سورة الإسراء: الآية: ٨١

أقواماً ويضع به آخرين)⁽¹⁾. وفي الأثر المعروف الّذي رواه إبراهيم ابن يعقوب الجوزجاني، وقد ذكره الطلمنكي، حدَّثنا يزيد بن عبدربه، حدَّثنا بقية، حدَّثنا عتبة بن حكيم، حدّثنا عمارة بن راشد الكناني عن زياد عن معاذ بن جبل قال: (يقرأ القرآن رجلان، فرجل له فيه هوىٰ ونيَّة يفليه فلْي الرَّأس، يلتمس أن يجد فيه أمراً يخرج به علىٰ الناس، أولئك شرار أمتهم، أولئك يعمي اللّه عليهم سبل الهدىٰ، ورجل يقرأه ليس له فيه هوىٰ ولا نية⁽²⁾، يفليه فلْي الرّأس فما تبين له فيه عمل به، وما اشتبه عليه وكل إلىٰ اللّه ليتفقهن⁽³⁾ فيه فقهاً وما فقهه قوم قط، حتىٰ لو أنَّ أحدهم لبث عشرين سنة ليبعثنَّ اللّه له من يبيِّن له الآية التي أشكلت عليه أو يفهمه إيَّاها من قبل نفسه)، قال بقية: أشهدني ابن عيينة حديث عتبة هذا⁽⁴⁾.

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه. انظر المختصر ٢/ ٣١٩.

(٢) يعني بذلك أنه ليس له فيه نية صالحة.

(٣) هكذا في الأصل ولعل الصواب. ليتفقه...

(٤) لم أجده فيما اطلعت عليه من كتب الآثار.